الجمهورية العراقية

وزارة التربية

آفاق تربوية رحبة

في التراث العربي الإسلامي

خليل ابراهيم السامرائي — تأليف — الدكتور نوري جعفر

الجمهورية العراقيـة
وزارة التربية

آفاق تربوية

رحبة في التراث العربي الاسلامي

تاليف

خليل ابراهيم السامرائي الدكتور نوري جعفر

مديرية مطبعة وزارة التربية رقم (٣) بغداد

بِسمِ الله الرحمن الرحيمِ

إقرأ باسم رَبِّكَ الذِي خَلَق ، خَلَق الأنسانَ مِن عَلَق ، إقرأ وربُكَ الأكرمُ الذِي عَلَّمَ بالقَلَم ، عَلَّمَ الأنسانَ مَا لَم يَعْلَمْ ٠

صَدَقَ اللهَ العظيم

مقدمة

شملت هذه الدراسة مبادىء وأسساً تربوية متناثرة هنا وهناك على صفحات متفرقة من مراجع تراثية لعلماء خاضوا ميادين مختلفة وعلى فترات متباينة من تاريخ امتنا الحضاري • فتركوا للأجيال سِفْراً خالداً وينابيع ثرّة من المعارف ظلّت شاهداً على عبقرية امتنا العربية •

وشعوراً بمسؤوليتنا في إحياء التراث العربي ونشره ، نقدّم للقراء الأعزاء جزءاً من هـذا التراث الذي يمثل أصالـة الأمـة بماضيها الحضاري في هذا الجهد المتواضع ، عسى أنْ ينتفعوا به في مهماتهم التربوية والثقافية أو قد يجدوا المتعة في هذه الثروة التاريخية والتربوية والنفسية •

ويودّ المؤلفان أنْ يؤكدا ـ في هذه الكلمة التمهيدية التي يستهدفان بها هذه الدراسة ـ أنّ الفكر التربوي في التراث العربي الاسلامي ورد في أماكن متفرقة ومتباعدة في امهات كتب السلف وبشكل عرضي أحياناً اثناء البحث في أمور تتعلق بالفلسـفة أو الطب أو علم الفلك أو الأدب •• وهي كثيرة وطريفة ومهمة أيضاً تتعذر الأحاطة بها •

ومع ذلك وبالاضافة اليه فقد وردت آراء تربويـة صائبة ـ بمقاييس ذلك الزمان وبمقاييسنا الراهنة ـ متبلورة في حالات كثيرة لدى بعض المفكريـن القدامى من المعنيين بشـؤون التربية والتعليم بصورة مباشرة مثل ابن سحنون وابن جماعة والقابسي والغزالي والماوردي والجاحظ • كمـا وردت ملاحظات تربويـة صائبة في وصايـا للمؤدبين صـدرت من غير المعنيين في الأصل بشؤون التربية والتعليم ، كما ورد ذلك مثلاً في وصية عتبة بن

ابي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده ووصية هرون الرشيد لأبي مريم مؤدب ولده الأمين ·

لاشكّ عند المؤلفين أن تراثنا العربي الاسلامي الثقافي الغزير المتعدد الجوانب سجّله رجال أفذاذ تجشموّا أهوال السفر ومتاعب والأقامة واستنسخوا بجلد ومثابرة نادرتين وبادوات كتابية وفي ضوء مصابيح الزيت والشموع أخباراً ونوادر وآراء تربوية تفرقت بين أقطار متباعدة الأرجاء · واذا تذكّرنا ـ مثلاً ـ أنّ البخاري بقي على متن السفر اكثر من تسعين يوماً في تقصّي حديث نبوي شريف واحد لم يصحّ في النهاية عنده فنفاه ولم يثبته في صحيحه لقدرّنا مبلغ ما ضحّى به اولئك الرجال العظام من أجل سلامة الثقافة والمحافظة عليها ·

نرجو أن نكون قد وُفقنا في تقديم هذه النخبة من العلماء والمفكرين مع عرض موجز لجوانب فكرية وتربوية ونفسيّة ، وتخصيص فصل عن أهمية العلم والمعرفة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف باعتبار القرآن الكريم المصدر الأول للمعرفة الدينية في الاسلام ، والاحاديث النبوية الشريفة تمثل جزءاً هاماً من حياة الرسول الكريم (ص) كتجربة اخلاقية وقدر تاريخي ·

وفي ظل هذه الظروف التي يمرّ بها عراقنا الحبيب وامتنا العربية ، فاننا مطالبون بان نجعل التاريخ والتراث سلاحاً معنوياً يمكّننا من النهوض ويدفعنا الى امام لأنّ تاريخنا تاريخ مشرق ومشرف

وبهذا نتمكن من تحقيق الطموحات المثلى التي تحرص ثورتنا المباركة على تحقيقها في صورة انسان المهمات الكبرى في المجتمع العربي الجديد ·

ولا يفوتنا ان نسجل شكرنا وتقديرنا لوزارة التربية ممثلة بشخص السيد الوزير للدعم الذي لقيناه في اخراج هذا الكتاب والى السادة اعضاء لجنة انتقاء الرسائل والبحوث التربوية والعلمية على الجهود القيمة التي بذلتها في هذا المضمار ومـــن الله التوفيق والسداد

المؤلفان

الفصل الأول

نظرات نقدية تربوية

« عندما نحرك الماضي أي بمعنى نحضر الماضي بروحه وقيمه لأغراض التفاعل لتأدية رسالة الحياة في العمل الى أمام فاننا في هذا لانستنسخ الصيغ والفعل من الماضي وإنما نمد جسراً حياً يربط بين الماضي والحاضر وينفتح للمستقبل بكل مستلزماته في التطوير والفعل الى أمام »[1] ·

ليست التربية علماً حديث الميلاد غريباً عن الحضارة العربية، فالتربية قديمة قدم الانسان ، ولكل مجتمع من المجتمعات قيمه وعاداته وتقاليده وحضارته الموروثة التي تناقلتها اجياله المتعاقبه مع ما أضيف لها من تراكمات مؤثرة أو متأثرة · وقد تختلف بعض المفاهيم التربوية من عصر الى عصر ومن آمة الى آمة اخرى ·

والذي يعنينا في هذا البحث هو ما يتعلق بالمفهوم الحديث للعملية التربوية من حيث النظام التربوي والهيكل التعليمي والمناهج ومحتواها والمعلم والمتعلم والتقويم والامتحانات ودور الكتب ، والمواقف الاجتماعية ذات المضامين التربوية أو النفسية ·

ان المراجع التراثية التي استخلصنا منها الافكار التربوية ، قدمت لنا مادة وصفية أكثر من أن تكون تحليلية نقدية ، فالقاريء

(١) السيد الرئيس صدام حسين : نظرية البعث والواقع العربي ص٤١ ·

المتتبع يستطيع أن يستقرىء التاريخ والحضارة العربية من خلال الربط القومي والنظرة الشمولية ، وعدم الاكتفاء بالنظر اليها آلياً دون ضبط الظواهر بدقة ، واعتبارها بُعداً من أبعاد الشخصية الحضارية المؤثر في الحاضر والمستقبل ، كي لانعود مرجعاً فحسب وإنما تصبح ملهماً وحافزاً للتجدد يشدّ المثقف العربي الى أمام ، ومن هنا يصبح فهم التراث فهماً ثورياً .

ان البحث عن جانب من الثقافة يدفعنا الى الأهتمام بالجوانب الاخرى وصولاً الى الصورة الشاملة التي لاتقتصر على معرفة الماضي أو تفهم الحاضر فحسب ، وإنما تعمل على توجيه تراثه نحو بناء مستقبل زاهر ، وكما يقول السيد الرئيس القائد : «نحن لا ننسخ الماضي ولا نستنسخ عن الماضي وأنما نستلهم روحه بصيغة جديدة من التطور »[٢] .

فالحاضر لاينفصل عن الماضي والتراث وحده يعطي الأمة شعوراً بالوحدة ، كما يعطيها حق الطموح الى حمل الرسالة ، فعند ذاك نستطيع أن نعبرّ تعبيراً صادقاً عن أصالتنا وحقيقتنا ، فالاصالة العربية لن تكون في التحنيط والتدجين ، بل في الانطلاق والانعتاق ، الأصالة هي ان نكمل ونبدع لا نعيد ونكرر ونقلد [٣]

وكما ان التراث يعطي الأمة شعوراً بالوحدة ، فالتخلي عنه ما هو الاّ تشبث شكلي بالمعاصرة وانتماء مظهري لها كما يقول السيد الرئيس القائد : « التخلي عن الماضي عبارة عن تشبث شكلي بالمعاصرة وانتماء مظهري لها والتخلي عن الحاضر المتحرك للامام

---

(٢) السيد الرئيس صدام حسين • حول كتابة التاريخ ص١٦ •

(٣) ميشيل عفلق البعث والتراث ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد •

ومستلزماته وقوانينه هو انتماء شكلي الى الماضي وليس انتماء انسانياً ثورياً »(٤) ٠

وفي تراثنا الفكري والتربوي يعتبر الاسلام حداً فاصلاً في تاريخ العرب وتطورهم الفكري ، فقد أكد على أهمية المعرفة والعلم وحث على الاستزادة منها ، وقد حث الرسول (ص) على كتابة آيات القرآن الكريم ، وقد شجع الخلفاء الأولون الناس على قراءة القرآن وتدارسه باعتباره المصدر الأول للاسلام وشرائعة ، وإن للاسلام الدور العظيم في ايقاظ العرب وتوحدهم وتوجيههم وتمكنهم من تحقيق المكانة الكبيرة التي نالوها بعد إيمانهم ٠

وكان القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة المنابع الأولى للثقافة والتربية والفكر العربي الاسلامي ، فقد جاء المنهج القرآني زاخراً بالقيم والأبعاد التربوية التي تتعلق بالعلم والتعليم والعلماء والسلوك التربوي ، فمن قوله في سورة الاحزاب : (ياايها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً الى الله باذنه وسراجا منيرا) ، ومن سورة فاطر قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عبادة العلماء) ، ومن سورة النحل قوله تعالى : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) ، ومن سورة الزمر قوله تعالى : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) ، الى آخر ذلك من الآيات التي لاتخلو سورة من سوره إلا وفيها اشارة الى العلم والى جانب من جوانب التربية ٠

ومن احاديث الرسول (ص) في العلم والعلماء قوله : « إنّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » ، وقوله (ص) : « لايكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً » ، وقوله

---

(٤) السيد الرئيس صدام حسين ــ نظرية البعث والواقع القومي للأمة ص٢٠

(ص) : « أيما مؤدب ولي ثلاثة صبية من هـذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين»، وقوله (ص) : «تعلموا العلم وتعلمواله السكينة والوقار وتواضعوا لمن تتعلمون منه ولاتكونوا جبابرة العلماء» · وكان الصحابة هم المعلمون الاوائل ، والمساجد هي المؤسسـات الدينية والتربوية، لذلك نرى ان العلم قد ازدهر في العهود الأولى في اماكن محدودة هي البصرة والكوفة والمدينة بالدرجة الاولى ثم في بغداد، وقد اهتم بالعلم وبدراسته عدد كبير من الناس في مراكـز متعددة ، فمثلاً كان عدد طلاب الحديث في الكوفة عام (٨٢ هـ) اربعة الآف طالب ، حيث كان العلم مفتوحاً للجميع يستطيع كل من أراد أن يطلبه ، فحلقات العلماء مفتوحة ولا يبخل الرجل في علمه ·

ثم انتقلت مراكز العلم الى عواصم اخرى كدمشق والقاهرة وقرطبه وغرناطة ، واصبحت تتفاعـل في داخلهـا الحضارات ، وبالرغم من هذه التعددية في العطاء الحضاري لهذه المراكز ، فقد ظل عطاءً أصيلاً · فالعلماء والفلاسفة والادباء والشعراء عبروا عن مختلف الجوانب من الحياة العربية وكانـوا يشـكلون حلقات متكاملة في السلسلة الحضارية التي تميز بها المجتمع العربي ·

والتعليم في المدارس لم يكن الاّ امتدادا لحركـة التعليم في في المساجد، حيث كان التعليم في المساجد يقتصر على القرآن والحديث والفقه وعلـوم الديـن واللغـة ، أما المـدارس فأخـذت تعنـى بالاضافة الى هذه العلوم بالرياضيات والطب والفلك والكيمياء والتاريخ وعلوم اللغة كالمنطق والأدب والنحو ، ولكل موضوع في المدرسة شيخ مختص بتدريسه · وكما كانت دور الحكمة تحوي

على خزائن الكتب النادرة والنفيسة والتي تعتبر مراكز للبحث والتوثيق والتأليف ، فقد كانت تلحق بالمساجد والمدارس خزائن للكتب كذلك ، حيث تعد بحد ذاتها دور علم يؤمها العلماء والأدباء ورواد الثقافة ينهلون من آدابها وعلومها ، فبيت الحكمة الذي انشأه ، (المأمون) مثلاً عام (٨٣٠ م) كان مجمعاً علمياً ومعهداً للترجمة ومكتبة ضخمة ومركزاً للبحث ، امتدت مآثره حتى منتصف القرن الخامس عشر ، وكذلك دار الحكمة في مصر ودمشق ، والمدارس الشهيرة في التاريخ كالمدارس النظامية في بغداد والبصرة والموصل ومدرسة النجف التي بدأ التعليم فيها عام ٤٤٨ هـ والمدرسة المستنصرية ومدرسة الامام ابي حنيفة ، والمدارس الاخرى التي أسست في مدن المغرب العربي كتونس والقيروان وفاس ، وقرطبة وغرناطة واشبيلية في الاندلس ٠

وهنا لا بد لنا ان نقف وقفة قصيرة عند (المدرسة المستنصرية) تلك المدرسة التي تعتبر من اشهر المدارس في بغداد التي بناها الخليفة العباسي المستنصر بالله سنه ٦٢٥ هـ على شط دجلة بالجانب الشرقي من بغداد ٠

وقدانشئت لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة،وقد نظم الخليفة المستنصر هذه المدرسة تنظيماً لم يسبق له مثيل من حيث الادارة والتدريس والطلبة وشؤونهم ، وقد اشترط ان يكون لكل طائفة من الطوائف الاربع مدرس (استاذ كرسي الفقه) ، وان يكون لكل مدرس اربعة معيدين وكان الخليفة هو الذي يعين المدرس بتوقيع يصدر عنه ٠

كما الحق المستنصر بمدرسته دارا للقرآن الكريم ، وكان من جملة الاقسام العلمية دار الحديث ٠ واشترط المستنصر ان يكون بمدرسته (نحوي) يدرس العربية وكان علم الطب من العلوم التي تدرس بالمستنصرية ٠ وعني المستنصر عناية بالغة بمكتبة المدرسة حتى اصبحت اعظم مدرسة في العالم انداك ، وظلت

تغنى بالكتب بعد تأسيسها فضلاً عن قيام بعض العلماء بوقف كتبهم عليها ٠

وكانت المستنصرية مدرسة داخلية توفر لرجال ادارتها ومدرسيها وطلبتها المأكل والمسكن ، فضلاً عن رواتب شهرية جارية ، كما كان المستوى العلمي للشيوخ والمدرسين والمعيدين والطلبة في المدرسة المستنصرية أعلى من مستويات المدارس المعاصرة، حيث كان المدرسون يتخيرون من بين كبار المدرسين في العراق والشام ومصر وغيرها ، وان المعيدين فيها كانوا ينقلون اليها احياناً الى مدرسين في المدارس الاخرى ، ولا يقبل اي طالب للدراسة فيها ما لم يكن من النابهين الذين اصبحت لهم شهرة تؤهلهم للدراسة فيها اضافة الى توفر مستلزمات التعليم العالي والبحث العلمي الذي يتمثل في وجود مكتبه ضخمة تحوي الأف المجلدات تساعد الاساتذة والطلبة على الدراسة ٠ والبحث والتأليف، كما ان معالجه شيخ الطب للمرضى يعد مجالاً تطبيقياً حيوياً لدراسة الطب ، فضلاً عن توفير المتطلبات المادية المجانية التي تجعل الاستاذ والطالب في مأمن من المشاكل التي تعترض سبيل دراستهم (٥) ٠

كما نود أن نبين أن الآراء والمواقف التربوية والنفسية التي وردت في هذه الدراسة الموجزة وردت في التراث العربي الاسلامي متفرقة ومتباعدة على وجه العموم وعرضية احياناً اثناء البحث في قضايا تتعلق بالفلسفة والآداب والطب وعلم الفلك ٠ وهي كثيرة جداً تتعذر الاحاطة بها ولم يولها الباحثون ـ على مانعلم ـ ما تستحقه من الدراسة ٠

---

(٥) العراق في التاريخ ـ مجموعة من المؤلفين ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٨٣ م ٠

ومع ذلك ـ وبالاضافة اليه ـ فقد ورد بعض تلك الآراء والمواقف التربوية والنفسية في حالات نادرة بشكل متبلور ومسجل بهيئة مستقلة عند بعض المعنيين بشؤون التربية والتعليم وعلم النفس ايضاً من حيث ارتباطه بالتربية ·

يضاف الى ذلك ـ ولا يقل أهمية عنه ـ ان التراث العربي الاسلامي مفعم بأمثلة كثيرة رائعه تتضمن آراء ومواقف سياسية واجتماعية ذات مضامين تربوية بالغة الأهمية ·

أما الجانب النفسي فيرتبط أوثق الأرتباط بتفسير طبيعة الحياة العقلية عند الانسان في ضوء احدث نظريات علم النفس المعاصر التي تنطلق من الدماغ باعتباره الاساس الجسمي (المادي : الفسلجي) لجميع قدرات الانسان العقلية · وقد ركزنا اهتمامنا في هذا الجانب بالذات على ماورد من ملاحظات صائبة في رسائل اخوان الصفا

لقد لاحظنا ـ اثناء تتبعنا لهذا الموضوع الطريف القديم الجديد ـ البالغ الأهمية أن الأهتمام بشؤون التربية وعلم النفس وفي موقع المعلم في العملية التربوية لا يقتصر على المعنيين بشؤون التعليم بمعناه المدرسي الشائع المعروف أو المعنيين بالقضايا الفكرية النظرية عموماً وانما هو يتعدى ذلك أو يتخطاه أيضاً فيشمل رجال السياسة والشخصيات الاجتماعية البارزة في المجتمع العربي ، من ذلك مثلاً ان عتبه بن أبي سفيان خاطب عبدالصمد مؤدب ولده بقوله : « ليكن أول ما تبدأ به من اصلاحك بنيّ اصلاحك نفسك فان اعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح عندهم ما استقبحت ·علّمهم كتاب الله ولا تُكرههم عليه فيملّوه ولا تتركهم منه فيهجروه ··· ثم رَوِّهم من الشعر أعفّه ومن الحديث أشرفه · ولا تُخرجهم من علم الى غيره حتى يحكموه ·· فأنّ ازدحام الكلام في السمع مَظَلّة للفهم· وعلمهم سِيَرَ الحكماء واخلاق الانبياء ·· وكُن لهم كالطبيب الذي لايُعَجِّل بالدواء حتى يعرف الداء »[٥] ·

وأوصى هرون الرشيد علي بن الحسن مؤدب ولده الأمين بقوله : «إنّ أمير المؤمنين دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه . فصيرّ يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة . فكنْ له حيث وضعك أمير المؤمنين . اقرئه القرآن وروّه الأشعار وعلمه السُنَن وبصّره بمواقع الكلام وبَدْئه . وامنعه من الضحك إلاّ في أوقاته . وخُذْه في تعظيم بني هاشم اذا دخلوا عليه . وبرفع مجالس القواد اذا حضَروا مجلسه . ولا تَمُرَنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير أن تُحزنَه فتميت ذهنه . ولاتمعنْ في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه . وقوّمْه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فانْ آباهما فعليك بالشدّة والغلْظة »[6] .

ونقل الرواة عن ابي محمد اليزيدي أنه قال :

«كنتُ اؤدّب المأمون وهو في حجر سعيد الجوهري ، فأتيته يوماً وهو داخل . فوجهتُ اليه بعض غلمانه . فأبطأ . ثم وجّهتُ اليه آخر ، فابطأ . فقلت لسعيد الجوهري : إنّ هذا الفتى ربما تأخر وتشاغل بالبطالة . فقال قوّمه بالأدب . فلما خرج أمرت بحمله وضربته تسع درر . فبينما هو يدلك عينيه من البكاء اذ أقبل الوزير فأستأذن على المأمون . فأخذ المأمون منديلاً فمسح عينيه وجمع ثيابه وقام الى فراشه وقعد عليه متربعاً ثم قال : يدخل الوزير . فدخل وقمتُ أنا من المجلس ، وخفتُ أن يشكوني الى الوزير فألقى منه ماأكره ... فلما همّ الوزير بالحركة دعا بدابته وأمر المأمون غلمانه فسعوا بين يديه . ثم سأل المأمون عني ... وقال خذني بقية يومي هذا ... فقلتُ : ايها الأمير

---

(٥) اراء ومواقف تربوية ونفسية صائبة في التراث العربي الاسلامي . دار الرشيد ١٩٨٣ بغداد . د . نوري جعفر .

(٦) المصد السابق نفسه .

لقد خفتُ ان تشكوني الى الوزير .. ولو فعلتَ ذلك لتنكّر لي .
فقال المأمون إنّا لله !! أتراني ـ يا ابا محمد ـ أُطلع الرشيد في هذه ؟ فكيف الوزير أُطلعه على اني احتاج الى ادب !!! يغفر الله لك ـ خذ في أمرك فقد خطر ببالك مالاتراه ابدا ولو عدتَ في كل مرة »[٧] .

وذكر الراغب الاصبهاني في محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ان ابا مريم مؤدّب الأمين ضرب الأمين يوماً فخدش ذراعه . وعندما حان وقت الطعام تعمّد الأمين ان يحسر عن ذراعه . فرآه الرشيد . فسأله فقال : ضربني ابو مريم . فبعث الرشيد اليه ودعاه . فقال ابو مريم : فخفتُ . فلما حضرتُ قال الرشيد : « ياغلام وضّه . فسكّنت . وجلستُ آكل . فقال الرشيد : ما بال محمد يشكوك ؟ قال ابو مريم : لقد غلبني خبثاً وعرامةً . فقال الرشيد : اقتلْهُ فلأن يموت خيرٌ من أنْ يموق »[٨] .

هذا طراز فريد في بابه من المواقف الدالة على مكانة المعلم الاجتماعية المرموقة . ويجري هذا المجرى ماحدّثَ به محمد بن اسحق النديم . قال : قرأتُ بخط ابي الطيّب ابن اخي الشافعي قال اشرف الرشيد على الكسائي ـ وهو لايراه ـ فقام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها . فابتدرها الأمين والمأمون ـ وكان مؤدبهما ـ فوضعاها بين يديه . فقبّلَ رؤوسهما وايديهما ثم اقسم عليهما الاّ يعاودا . فلما جلس الرشيد مجلسه قال ايُّ الناس أكرمُ خدماً ؟ قال الكسائي : أميرُ المؤمنين اعزّه الله . قال الرشيد بل الكسائي يخدمه الأمين والمأمون[٩] .

---

(٧) المصدر السابق نفسه

(٨) المصدر السابق نفسه

(٩) المصدر السابق نفسه

وهناك طراز آخر من المعلمين فريد في بابه ايضاً • يشير الى الجهد الفكري المضني الذي يبذله المعلم في تقويم لسان الطفل مثلاً وازالة اللثغة التي يظن كثير من الناس دون سند علمي انها حصيلة نقص فسلجي في اللسان •

ذكر الرواة عن ابي الفتح احمد بن علي بن هرون المنجم قوله : « حدثني ابي قال : كنتُ ـ وانا صبي ـ لاأقيم الرّاء في كلامي واجعلها غنياً • وكانت سنّي آنذاك اربع سنين • أقل أو أكثر • فدخل ابو طالب الفضل بن سلمه او ابو بكر الدمشقي الى ابي وانا بحضرته • فتكلمتُ بشيء فيه رآء • فلثغت فيها • فقال الرجل : ياسيدي لِمَ تدع هذا الصبي يتكلم هكذا ؟ فقال ابي : ما أصنع وهو ألثغ ؟ فقال الرجل ـ وان أسمع ماجرى واضبطه ـ ان اللثغة عادة سوء تسبق الصبي أول مايتكلم لجهله بتحقيق الالفاظ ••• وأنا أزيل هذا عنه •• ولا ارضى بتركك له عليه • ثم قال لي اخرجْ لسانك • فأخرجته • فتأمله • وقال : الجارحه صحيحه • قلْ يابُنيّ راء واجعل لسانك في سقف حلقك • فقلت ذلك • فلم يستوِ لي • فما زال يرفق بي تارةً ويخشن اخرى • وينقل لساني من موضع الى موضع في فمي ويأمرني ان اقول الراء فيه • فاذا لم يَستوِ لي نقل لساني الى موضع آخر من فمي دفعات كثيرة • وطالبني بلفظ الراء منه ••• وهكذا حتى مَرنَ لساني وذهبتْ عني اللُثغة »(١٠) • ان هذه الحادثة الطريفة والمهمة تجعلنا ـ نحن المعلمين ـ مطالبين في الحاضر ببذل مزيد من الجهد في عملنا التربوي •

---

(١٠) المصدر السابق نفسه

(١١) المصدر السابق نفسه

الفصل الثاني

الاسلام والتربية

التربية في القرآن الكريم :

لقد تغيرت مقاييس القيم التربوية والاخلاقية عند مجيء الاسلام بتغيير المجتمع وعقيدته ، فالاسلام عقيدة ، وفي الوقت نفسه جهاد في سبيل العقيدة ، فقد جاء كرسالة انسانية يدعو الى التجدد ، لأن التجدد ارادة الحياة وارادة البقاء والارتقاء ، فالاسلام كتجربة ثورية اضافة لكونه دين ، فهو هزة حيوية حرّك كامن القوى في الأمة ففاضت على الأمم الاخرى فكراً وعملاً وعدلاً وانسانية ٠

جاء الاسلام مؤكداً على أهمية العلم والمعرفة وحث على الاستزادة منها ونشرها ودعا الى استعمال العقل والفكر في دراسة العالم ، ولذلك نجد العدد الكبير من المسلمين اشتغلوا في ميادين العلم والمعرفة على اختلافها ، فكان القرآن الكريم المصدر الأول للمعرفة الدينية في الاسلام ، فقد اتخذ منهجاً جديداً للتأثير العميق في عقل الانسان العربي وشعوره ، فسوره زاخرة بالقيم والمفاهيم التربوية كالصدق والأمانة والوفاء بالعهد والشجاعة والتسامي والتسامح والعدل والأيثار والتعاطف الانساني ، وكان الحث على التمسك بهذه القيم والمبادىء عن طريق الاسلوب المباشر أحياناً أو غير المباشر ، كالتربية عن طريق القدوة أو الجزاء أو الخبرة الاجتماعية أو بضرب الأمثال ٠

وعلى سبيل المثال نورد جملة من الآيات التي تضمنت مبادىء تربوية عن طريق الأسلوب المباشر ، كالوعظ أو الأمر أو النهي في الآيات الآتية :

(إنّ الله يأمركم أنْ تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أنْ تحكموا بالعدل إنّ الله نعمّا يعظكم به) ٠

(سورة النساء)

(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)

(سورة النحل)

(فاسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لاتعلمون)

(سورة النحل)

(وقل ربي زدني علما)

(سورة طه)

(وقل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون)

(سورة الزمر)

(فلينظر الانسان الى طعامه ، إنا صببنا الماء صبّا ، ثم شققنا الأرض شقّا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا متاعا لكم ولا نعامكم) ٠

(سورة عبس)

(ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أنْ يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) ٠

(سورة الحجرات)

(ولا تنسوا الفضل بينكم)

(سورة البقرة)

(وإن ليس للانسان الاّ ماسعى)

(سورة النجم)

(اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم)

(سورة العلق)

(إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)

(سورة الزخرف)

وفي الآيات التالية وردت المفاهيم التربوية عن طريق القدوة:

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)

(سورة الاحزاب)

(كنتم خير أمة أُخرجتْ للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)

(سورة ال عمران)

(خلق الانسان علمه البيان)

(سورة الرحمن)

(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم)

(سورة النساء)

(وأمرهم شورى بينهم) ٠

(سورة الشورى)

(وإن الله لايغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

(سورة الرعد)

أما التربية عن طريق الخبرة الاجتماعية فكما جاءت في الآيات الآتية :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) ٠

(سورة الفتح)

(رحمة من الله لنتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)

(سورة ال عمران)

(ولا تمشِ في الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا)

(سورة الاسراء)

(إنّ الله يأمركم أنْ تؤدوا الأمانات الى أهلها)

(سورة النساء)

(وإذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردوها ، إنّ الله كان على كل شيء حسيبا)

(سورة النساء)

(ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكما وعلما)

(سورة القصص)

(وعلمتم مالم تعلموا انتم ولا آباؤكم)

(سورة الانعام)

(قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا)

(سورة الأنعام)

اما التربية عن طريق الجزاء (الثواب والعقاب) فقد وردت في الآيات الآتية :

(وما تفعلوا من خير يعلمه الله)

(سورة البقرة)

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يـره ومن يعمـل مثقال ذرة شرّاً يره)

(سورة الزلزلة)

(يرفع الله الذين آمنـوا منكم والذين اوتوا العلم درجـات)

(سورة المجادلة)

(كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون)

(سورة الروم)

(كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون)

(سورة البقرة)

(ولا يكلف الله نفساً الاّ وسعها)

(سورة البقرة)

(ياأيها الانسان انّك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه)

(سورة الانشقاق)

(كل نفس بما كسبت رهينة)

(سورة المدثر)

(انّ الله لايغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم)

(سورة الرعد)

(ياأيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوافيالمجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، واذا قيل انشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير)

(سورة المجادلة)

أما التربية عن طريق ضرب الأمثال فكما جاءت في الآيات الاتية :

(واضرب لهم مثلاً رجلين ، جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل) وجعلنا بينهما زرعا كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا .. الخ)

(سورة الكهف)

(ولقد همّت به وهمّ بها لولا أنْ رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ، قال ربّ السجن أحبّ اليّ مما يدعونني اليه والا تصرف عني كيدهن أصبُ اليهن وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم) .

(سورة يوسف)

(الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم)

(سورة النور)

(انما يخشى الله من عباده العلماء)

(سورة فاطر)

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون)

(سورة العنكبوت)

(ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا)

(سورة الحج)

(أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأظله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون).

(سورة الجاثية)

(ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة)

(سورة الروم)

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بأذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار)

(سورة ابراهيم)

وقد وجدنا زيادة في الفائدة أن نثبت الآيات وسورها التي وردت في العلم والعلماء :

(كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)

(سورة البقرة)

(... وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌ من عند ربنا وما يذكّر الا اولوا الألباب)

(سورة آل عمران)

(شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط ... إنّ الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ...)

(سورة آل عمران)

(... وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما)

(سورة النساء)

(لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ...)

(سورة النساء)

(··· قلْ مَنْ انزلَ الكتاب الذي جاء به موسى نـورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلّمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم قل اللهُ ثم ذرهمْ في خوضهم يلعبون)

(سورة الانعام)

(بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتِهم تأويله ···)

(سورة يونس)

(آلر كتابٌ انزلناه اليك لتخـرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد)

(سورة ابراهيم)

(ويسئلونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الاّ قليلا)

(سورة الاسراء)

(وليعلم الذين اوتوا العلم انه الحقّ من ربك فيؤمنوا به فتخبتَ له قلوبهم وانّ الله لهادِ الذين آمنوا الى صراط مستقيم)

(سورة الحج)

(ويرى الذين اوتوا العلم الذين أنزل اليكَ من ربّك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد)

(سورة سبأ)

(وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمـات ولا النور ، ولا الظلّ ولا الحَرور)

(سورة فاطر)

(... انما يخشي الله من عباده العلماء ، إنّ الله عزيـز غفور)

(سورة فاطر)

(قلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر اولوا الألباب)

(سورة الزمر)

(وما تَفرّقوا الاّ من بعد ما جاءهم العلمُ بغياً بينهم ...)

(سورة الشورى)

(واتيناهم بيناتٍ من الأمر فما اختلفوا الاّ من بعد مـا جاءهم العلم بغياً بينهم ، .. ثم جعلناك على شريعـة من الأمـر فاتبعها ولا تتبعْ أهواء الذين لايعلمون)

(سورة الجاثية)

(الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان)

(سورة الرحمن)

(اقـرأ باسم ربك الذي خلق ، خلـق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم،الذي علّم بالقلم ، علّم الانسان ما لم يعلم)

(سورة العلق)

وفي استحباب الرحلة لطلب العلم وردت الآيـات الآتية :

(... فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)

(سورة التوبة)

(قال له موسى هـل اتّبعك على انْ تُعلّمِن مما عُلّمتَ رشْدا)

(سورة الكهف)

اما في رفعة العلماء فجاءت الآيات التالية مبينة ذلك :
(... نرفع درجات من نشاء انّ ربّك حكيم عليم)

(سورة الانعام)
(... نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم)
(سورة يوسف)

(... يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير)

(سورة المجادلة)

وفي وجوب الاسترشاد بالعلماء ورد ذلك في الآيتين الآتيتين :
(وما ارسلنا من قبلك الاّ رجالاً نُوحي اليهم فسْئلُوا اهل الذكر انْ كنتم لاتعلمون)

(سورة النحل)

وعن مشروعية الاستنباط ورد ذلك في الآية التالية :
(... ولو ردّوهُ الى الرسول والى اولي الآمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ...)

(سورة النساء)

اما عمن يصيب من علم علما فيكتمه على الآخرين ممن يطلبونه ، فقد ورد ذلك في سورة البقرة :

(إنّ الذين يكتمون ما انزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، الاّ الذين تابوا واصلحوا وبيّنوا فاولئك اتوب عليهم وانا التوّاب الرحيم)

وفي الحث على التعلم والتعليم . فقد جاءفيسورة آل عمران:
(... ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)

أما عن المناظرة في العلم ، فقد ورد ذلك فيما يأتي :

(الم تَرَ الى الذين حاجّ ابراهيم في ربّهِ أنْ أتاه الله الملك اذ قال ابراهيمُ ربي الذي يحيي ويميت قال انا اُحيي واميت قال ابراهيم فانّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فَبُهتَ الذي كفرَ والله لايهدي القومَ الظالمين)

(سورة البقرة)

(.... ايتوني بكتابٍ من قَبْلِ هذا او اثارةٍ من علم انْ كنتم صادقين)

(سورة الاحقاف)

وفي جعل الشخص المناسب في المكان المناسب ، اي مَنْ يولّى امراً ينبغي أنْ يكون عارفاً به ، قال سبحانه تعالىفيالايات الآتية:

(... قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطةً في العلم والجسم ...)

(سورة البقرة)

(ولما بلَغَ اشدّهُ اتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين)

(سورة البقرة)

(قال اجعلني على خزائنِ الأرضِ انّي حفيظ عليم)

(سورة يوسف)

(ولوطاً اتيناه حكماً وعلما ...)

(سورة الانبياء)

(ففهمناها سليمان وكُلاً اتيناه حكماً وعلما ...)

(سورة الانبياء)

(ولما بلغ اشدّه واستوى اتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين)

(سورة القصص)

اما في الحث على تعلم العلم والحساب والفلك فيبين الله تعالى ذلك في الآيات الآتية :

(فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا)

(سورة الانعام)

(انّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ...)

(سورة التوبة)

(هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ...)

(سورة يونس)

(وجعلنا الليل والنها آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آيــة النهار مبصرة لتبتغوا فضــلا من ربكم ولتعلموا عــدد السنين والحساب ٠٠٠)

(سورة الاسراء)

(ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً)

(سوة الكهف)

(الشمس والقمر بحسبان)

(سورة الرحمن)

التربية في الحديث الشريف :

جاء الرسول العظيم محمد (ص) نبي الانسانية وبطل الأمة العربية هادياً ومنقذاً ، وبعبقريته الفذّة وحّد الأفكار والأهداف وبنى الانسان على ثلاث دعائم : العقيدة والقدوة واختيار الرجل المناسب للعمل المناسب ، فالرسول (ص) قدوة للاخرين في السلم والحرب ، اخلاقاً وسلوكاً ومعاملة ومنهجاً وأسلوباً للحياة ، فكان نبياً ورسولاً ومعلماً ورائداً وزعيماً وقائدا .

انّ الاحاديث النبوية الشريفة تمثل جزءاً هاماً من حياة الرسول الكريم (ص) كتجربة اخلاقيه وقدر تاريخي . ومن هنا تبرز أهميتها في الحياة الفكرية والاخلاقية والعلمية،وهي المصدر الثاني لفهم الاسلام بعد القرآن الكريم ، وهي التراث التربوي الخالد الذي دعا المسلمين أن يتميزوا بأخلاقهم وسلوكهم واتجاههم الفكري والعقائدي ، كما كانت للرسول (ص) طريقة محببة الى القلوب في الوعظ وهي استخدام الوعظ غير المباشر ، واسلوبه يمتاز بالايجاز والصفاء وقوة العبارة وتأثيرها ، وهنا تستبين بلاغته وتمكنه من اللغة وقدرته على توضح المعاني وابرازها في صورة مجسمة ، ودقته في استخدام التشبيه . ولا جدال في ذلك ، فقد كان الرسول (ص) أفصح الناس وأبينهم وأبلغهم حجة وأغزرهم حكماً وأعظمهم تأثيراً في النفوس . لهذا حرص المسلمون على حفظ آثاره نجمعوها وشرحوها .

والأحاديث النبوية الشريفة تناولت العبادات والمعاملات ، واخرى في السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها في العلم والتربية والقيم الاخلاقية .

ولابدّ التنويه هناان الرسول (ص) أول من أمر بتعليم المسلمين حيث اشترط لاطلاق سراح الاسرى في بدر ، ان يتولى كل اسير تعليم عشرة صبيان من المسلمين وفي هذا جانب تربوي هام يدل على مدى اهتمام المسلمين وقائدهم محمد (ص) بالعلم ٠

نذكر فيما يلي مجموعة من الأحاديث النبويـة والتي تتصل موضوعاتها ومعانيها بالتربية والعلم والعلماء ٠

قال صلى الله عليه وسلم :

« تعلموا العلم فـانّ في تعلمـه لله خشـية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسـبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لايعلمونه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالـم الحلال والحرام ، ومنار سبل الجنة ، والمؤنس في الوحدة والوحشة ، والصاحب في الغربة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الاعداء ، والمقرب عند الغرباء ، والزين عند الاخلاء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة يهتدي بهم وأئمـة في الخير تقتفى آثارهـم ، ويوثـق بأعمالهم ، وينتهى الى آرائهم ٠٠٠ واعلم انّ العلـم امام العمل والعمل تابعه ، ويلهمه الله السعداء ، ويحرمه الأشقياء » ٠

« أصحابي كالنجوم ، فبأيهم اقتديتم اهتديتم » ٠

«إنّ أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»

«العلم علمان ، علم على اللسـان فذلـك حجـة الله تعالى على خلقه ، وعلم في القلب فذلك العلم النافع» ٠

«مَنْ ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الاّ بُعدا»
«آفة العلم النسيان ، واضاعته ان تحدث به غير أهله» .

«أيما مؤدب ولي ثلاثة صبية من هذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غينهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين» .

«كونوا علماء صالحين ، فان لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علماً يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى» .
«طلب العلم فريضة على كل مسلم»

«تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ولا تكونوا جبابرة العلماء»

«أبث العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحرّ والصغير والكبير ، فاذا فعلت ذلك بهم آخذ تهم بحقي عليهم»

«قيل لرسول الله (ص) : أي الناس أعلم ، قال من جمع علم الناس الى علمه ، وكل طالب علم غرثان الى علم»

«لاخير في عبادة لاعلم فيها ولا فهم ولاقراءة ولا تدبر فيها»

«إنّ من أحبكم اليّ واقربكم مني مجلساً يوم القيامة احاسنكم أخلاقاً ، وانّ أبغضكم اليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» .

«دعْ مايريبك الى ما لايريبك»

★ الاحاديث السنوية الشريفة الواردة في البحث من سنن الدارمي لابي محمد عبدالله بن الرحمان بن الفضـــل بن بهرام الدارمي . الناشر : محمد أحمد دهمان ـ مطبعة الاعتدال بدمشق ط ١٣٤٩/١ هـ الاجزاء ١

تلك هي النماذج الرائعة الغنيــة في حــق العلــم والعلماء ومباديء التربية الأصيلــة التي وردت في القــرآن الكريــم وفي الأحاديث النبوية الشريفه التي جاءت مؤكدة وموضحة لما جاء به كتاب الله العزيز هدى للناس وصراطاً مستقيما .

الفصل الثالث
شخصيات وآراء في التربية والتعليم

نجد بين طيات الكتب التراثية القديمة اراء تربوية قيّمة تصف أو توضح أو تنقد جانباً تربوياً أو تعليمياً ، ومهما تكن قيمة هذا الرأي أوذاك فانه يعكس لنا حالة معينة للوظيفة التعليمية أو لطرق التدريس أو لصفات المعلم أو لنظرة في التربية الخلقية أو العقلية ٠

نستعرض في هذاالفصل آراء لفئة من المعنيين بشؤون التعليم:

اخوان الصفا :[١]

وردت في رسائل اخوان الصفا الملاحظات التالية التي تحمل مجمل ارائهم التربوية : بصدد رعاية الحامل حفظاً لصحتها وصحة الجنين [وهو ما اخذت به الدول المتقدمة المعاصرة ، وردت العبارات الشيقة الآتية : « قد تبين مما ذكرناه ان مكث الجنين في الرّحم تسعة أشهر انما لكي تتم البنية في هذه الدنيا ٠٠ وقد أوصى الأطباء الحوامل من النساء بالرفق بانفسهن في حركتهن وتصرفاتهن باعتدال وبوسائط بلا افراط ولاتقصير كيما يسلم الجنين من الآفات العارضة هناك ، ويخرج الطفل سالماً الى هذه الدنيا» ٠ وورد بصدد أثر البيئة في نشوء الحياة العقلية عند الفرد منذ الطفولة مايلي «اعلم ياأخي ـ ايدك الله وإيانا بروح منه ـ أنّ

---

(١) اخوان الصفا : جمعية سرية تألفت في اواسط القرن الرابع للهجرة ببغداد وتباحث اصحابها في الفلسفة على انواعها بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند وتعديلها واساس مذهبهم الذي دونوه في رسائلهم الخمسين : « ان الشريعة الاسلامية تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولاسبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة الاسلامية فقد حصل الكمال »

مثل افكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم واعتقاد من الآراء كمثل ورق نقي لم يكتب فيه شيء ٠ فاذا كتب فيه شيء ـ حقاً أو باطلاً ـ فقد شُغل المكان ومُنع أن يكتب فيه شيء آخر ٠

ويصعب حكّه ومحوه ٠ فهكذا حكم أفكار النفوس ٠٠٠ فاذا كان الأمـر كذلك فينبغي لـك ـ ايهـا الأخ ـ ان لاتَشْغَل باصـلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقـدوا من الصّبا آراء فاسـدة وعادات رديئة واخلاقاً وحشية ، فأنهم يتعبونـك ثـم لايتعلمـون ٠ وان صلحوا قليلاً قليلاً فلا يفلحون ٠ ولكن عليك بالشباب السـالمي الصدور الراغبين في الآداب المبتدئين بالنظر في العلوم ٠ واعلم ان كل نبي بعثه الله فأول من كذّبه مشايخ قومه»[٢]٠

وحول القدوة الحسنة والأثر العميق الذي تتركه في سلوك الطفل تصرفات المشرفين على تربيته في الاسرة وخارجهـا وحول امعان الفكر في مواد الدراسة ومبدأ التعليم بالعمل او بالممارسة والتطبيق كتب اخوان الصفا مايلي : «واعلم ياأخي ـ ايدك الله وايانا بروح منه ـ بأنّ العادات الجارية بالمداومـة فانها تقوّي الأخلاق المشاكله لها ٠ كما ان النظر في العلوم والمداومة على البحث والدرس لها والمذاكرة فيها تقوّي الحـذق بها والرسـوخ فيها ٠

وهكذا المداومة على استعمال الصنائع يقوّي الحذق والاسـتاذية فيها ٠ وهكذا جميع الاخلاق والسجايا ٠ والمثال في ذلك انّ كثيراً من الصبيان اذا نشأوا مع الشجعان والفرسـان وأصحاب السلاح وتربّوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم ٠ وعلى هذا القياس

---

(٢) الدكتور نوري جعفر ـ اراء ومواقف تربوية ونفسية صائبة ، في التراث العربي الاسلامي ـ دار الرشيد بغداد ـ ١٩٨٢ ص ٠

يجري حكم سائر الاخلاق والسجايا التي ينطبع عليها الصبيان منذ الصغر بأخلاق الآباء والأمهات والاخوة والاخوات والاتراب والأصدقاء والمعلمين والاستاذين المخالطين لهم في تصاريف احوالهم ... وعلى هذا القياس الآراء والمذاهب والديانات جميعاً»[٣] .

وحول أهمية المعلم في حياة التلاميذ كتب اخوان الصفا مايلي : «واعلم ان المعلم والاستاذ أب لنفسك وسبب نشوئها وعلّة حياتها . كما أنّ والدك اب لجسدك وكان سبباً لوجوده وذلك ان والدك اعطاك صورة جسدانية ومعلمك اعطاك صورة روحانية . وذلك ان المعلم يغذي نفسك بالعلوم ويربّيها بالمعارف . فسلْ يأخي ربّك أن يوفّق لك معلماً رشيداً هادياً سديدا ... واعلم يأخي أن من سعادتك بأنّ يتفق لك معلم ذكي جيد الطبع حسن الخلق صافي الذهن محب للعلم طالب للحق غير متعصب لرأي من المذاهب»[٤] .

وبصدد الأخلاق العلمية وردت العبارات التالية : « واعلم ياأخي ـ ايدك الله وايانا بروح منه ـ بان طالب العلم يحتاج الى سبع خصال ... فمنها السؤال والصمت ثم الاستماع ثم التفكير ثم العمل به ... ومنها ترك الاعجاب بمحاسنه ... وان العلم يكسب صاحبه عشرة خصال محمودة فمنها الشرف ... والعزة والقوة .. والحياء ... والمهابة ... واعلم يأخي ان للعلماء ـ مع كثرة فضائل العلم ـ آفات وعيوباً ... فمنها الكبر والعجب والافتخار والتعصب ... وترك العمل بموجبات العلم وعجب

---

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

المرء برأي نفسه والأنفه من قبول الحق وترك الاقرار به ... والطيش في التصرف ... والغش والمكر في المعاملة والاستصغار لابناء الجنس وأقاويل الزور»[4] .

وحول قواعد الجدل العلمي وتبادل الرأي في النقاش للوصول الى الحقيقة مع مراعاة الاختصاص كتب اخوان الصفاء : «اعلم ان كل مسألة تنازع فيها اثنان أو جماعة فلا تخلو من أن يكونوا من أهل الصناعة التي المسألة منها أو يكونوا من غير أهلها . فان كانوا من غير أهلها فكلامهم فيها على غير أصل مقرّر منهم . وان كان احدهما من غير اهلها فان منازعته لصاحبه تعدٍّ وظلم، وكلام صاحبه معه ايضاً تخلف منه اذ كان يجادل مع من ليس من أهل صناعته . وان كانا من أهل الصناعة فلا يخلوا من أن يكونا متساويين في الدرجة فيها أومتفاوتين . فان كانا متفاوتين فحكمهما مثل ماتقدّم ذكره من ذكر حكم الاولين . وان كان متساويي الدرجة في تلك الصناعة فسبيلهما أن يؤخذا فيما اختلفا فيه الى قوانين تلك الصناعة واصولها ويقيسا عليها تلك المسألة ان كانت من فروعها . وان لم يكن في قوة نفوسهما استخراجها فسبيلهما ان يتحاكما الى من هو أعلى درجة منهما في تلك الصناعة ليحكم بينهما فيرضيا بحكمه ان لم يكن في قوة نفوسهما استخراجها من الأصول نليس لهما الاّ الترك لتلك المسألة والسكوت عنها . فان لم يفعلا ما وضعنا في الجدال فسيكون ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما : كلما ازدادا الحاحاً ازدادا خلافاً على خلاف»[6] .

---

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق نفسه .

وحول انفتاح الذهن والنقد الذاتي ــ بالتعبير الحديث ــ وهو ماتطمح التربية الحديثة نحو تحقيقه وردت عبارات جريئة جداً في ضوء قرينتها التاريخية وظروفها الاجتماعية السائدة انذاك ــ وفي الوقت الحاضر ايضاً في كثير من المجتمعات المعاصرة ــ بحيث ان المرء يتهيب حتى عند الاستشهاد بها :

«اعلم ــ ايها الأخ البار ــ ان الحق في كل دين موجود ... وان الشبهة دخولها على كل انسان جائز ممكن .... فلا تتمسك بما انت عليه من دينك ومذهبك واطلب خيراً منه . فان وجدت فلا يسعك الوقوف على الأول . ولكن واجب عليك الأخذ بالأخير الأفضل والانتقال اليه . ولا تشغلن بذكر معايب مذاهب الناس ولكن انظر هل لك مذهب بدون عيوب ؟

واعلم ان الانسان العاقل قد يخفى عليه عيوب مذهبه كما تخفى عليه مساوىء خلاله وقبائح أفعاله وسيئات أعماله وتسنح له عيوب غيره» . هذه العبارات أكثر دقة وجراءة ــ بنظرنا ــ من العبارات المماثلة التي كتبها الفيلسوف البريطاني جون لوك [١٦٣٩ــ ١٧٠٤] ــ الذي جاء بعد اخوان الصفا بأكثر من ستة قرون ــ في رسالته الذائعة الصيت التي ترجمة عنوانها «التساهل» أو «التسامح» . والعبارات المشار اليها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعبارات اخرى مماثلة وردت في اماكن شتى من الرسائل: «وبالجملة ينبغي لاخواننا ــ أيدهم الله تعالى ــ ان لايعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب» .

معنى هذا انهم ضد التعصب الذميم لاضد اعتناق الآراء والمبادىء السليمة . ولهذا نجدهم يقفون بحزم ضد الآراء الفاسدة : «واعلم يأخي ان الآراء الفاسدة كثيرة .. وان اهلها جم غفير .. وان أضرهم بالعلماء مَنْ اذا سئلوا عن اشياء هي موجودة مقدّرة بين الناس ومعروفة مشهورة عند الحكماء لايحسنون ان يجيبوا عليها .. بل يخوضون في طغيانهم وجهالاتهم .. يكتبون في ابطانها المقالات المزخرفة ويعارضون الحكماء ويشنّعون عليهم» .

وحول أهمية العلم في الحياة وحول التعاون المثمر في سبيل نشره وردت العبارات الممتعه التالية : «واعلم ان مواهب الله جلّ اسمه كثيرة ولا يُحصى عددها ولكن يجمعها جنسان تحت كل جنس أنواع كثيرة أحدها قِنْية جسدانيه والاخرى قِنْيَة نفسانية . فمن القنية الجسدانية احدها المال . ومن القنية النفسانيه أحدها العلم . والناس في هاتين النعمتين العظيمتين على منازل أربع :

منهم من قد رُزق الحظ من المال والعلم جميعاً . ومنهم رزق المال ولم يرزق العلم ومنهم من رزق العلم ولم يرزق المال . فينبغي لاخواننا ممن قد رزق المال والعلم أن يؤدي شكر ما انعم الله جلّ عز به عليه بأن يضم اليه أخاً من اخوانه ممن حرمهما جميعاً ... ولا ينبغي أن يمنّ عليه بما ينفق عليه من مال ولا يستحقره .. وأما مَنْ رُزق المال ولم يرزق العلم من اخواننا فينبغي له ان يطلب أخاً ممن رزق العلم ويضمه اليه ويواسيه : هذا من ماله ، وهذا من علمه . ويتعاونان على اصلاح أمر الدين والدنيا . وينبغي للأخ ذي المال أنْ لايمنّ على الأخ ذي العلم بما يواسيه من مال ولايحتقره لفقره .. وينبغي للأخ ذي العلم والحكم ان لايحسد أخاً ذا مال ولا يستحقره لجهله ولا يفخر عليه بعلمه ولا يطلب منه

عوضاً فيما يعمله · لان مثلهما في صحبتهما وتعاونهما ـ هذا لهذا بماله وهذا لهذا بعلمه ـ كمثل اليد والرّجل في اتصالهما بالجسد ووحدتهما وتعاونهما في اصلاح الجملة · وذلك لأن اليدين لاتطلبان من الرّجلين ـ اذا احتذيتا نعلاً أو أخرجتا منهما شوكة ـ جزاءً ولاشكورا · وكذلك الرّجلان لاتطلبان من اليدين ـ اذا بلغاتهما الى الموضع الذي شاءتا وهربتا من خوف القطع ـ جزاءً ولا عوضاً ، لانهما آلات جسد واحد وقوام أحدهما بالآخر · وهكذا ايضاً السمع لايمن على البصر اذا اسمعه النداء · ولا البصر على السمع اذا أراه المنادي · وهكذا ينبغي أن يكون تعاون اخوان الصفا في طلب الدين والدنيا ، ذلك لان معاونة الأخ ذي العلم للأخ ذي المال بعلمه في صلاح الدين كمثل رجلين اصطحبا في الطريق في مفازة · احدهما بصير خفيف البدن معه زاد ثقيل لايطيق حمله ·

والآخر أعمى قوي البدن ليس معه زاد · فاخذ البصير بيد الأعمى يقوده خلفه ، واخذ الأعمى ثِقَل البصير فحمله على كتفه ، وتواسيا بذلك الزاد وقطعا الطريق · ونَجَوا معاً ، فليس لاحدهما ان يمن على الآخر في انجائهمن التهلكة في معاونته لانهما نُجوا معا بمعاونة كل واحد منهما صاحبه · والمعاونة لاتكون الا بين اثنين أو اكثر وللأخ الجاهل كالاعمى · والأخ الفقير كالضعيف · وللأخ الغني كالقوي · وللأخ العالم كالبصير · والطريق هو صحبة النفس مع الجسد · والمفازة هي الحياة الدنيا ، والنجاة الآخرة»[٧] ·

وبصدد تمحيص معاني الكلام تفاديا للالتباس أو الغموض أو الايهام في المعنى وردت العبارات التاليه : «واعلم أن الحق هو غاية ليست وراءها نهاية ولكن دونها أمور متشابهة مشكلة · واعلم أن

---

(٧) المصدر السابق نفسه ·

الالفاظ محتملة المعاني وان الاوهام تذهب في طلبها كل مذهب ·
فينبغي اذا سمعت لفظة محتملة للمعاني الا تحكم عليها دون أن
تتبين بعقلك كل المعاني التي تحتملها تلك اللفظة لعلك تفهم الغرض
الأقصى الذي هو الصواب· وتبلغ الغاية التي هي الحق ··· ونريد
أن نضرب لك مثلاً ليكون قياساً على ماقلنا ووصفنا : ذكر في
المثال أنه كان رجلان اصطحبا في طريق على سفر · فلمّا انتهيا
الى شاطيء نهر قعدا للغداء · فأخرج كل واحد زاده ، فكان مع
احدهما رغيفان ومع الآخر ثلاثة أرغفه ، نكسراها في موضع واحد
ليأكلاها اذ مرّ بهما مجتاز فدعواه الى طعاميهما فأجاب وجلس
وأكل معهما ، فلما فرغوا قام ورمى بين يديهما خمسة دراهم وقال:

اقسماها بينكما بالسوية ، ومضى هو لسبيله · فقال صاحب
الرغيفين لصاحبه : لك النصف ولي النصف الباقي لانه قال
بالسوية · وقال صاحب الثلاثة أرغفة : بل العدل أن يكون لي
ثلاثة دراهم ولك درهمان لأنه قال بالسوية بحسب الرغفان ،
فتنازعا وتخاصما وتحاكما الى قاضٍ فحكم باربعة دراهم للأول
وبدرهم واحد للثاني · وكان حكمه سليماً» · ومن طريف مايروى
في هذا الباب ان القاضي شُريك بن عبدالله زار المهدي فأراد
المهدي ان يجزه فقال للخادم هات للقاضي عودا · فجاء الخادم
بالعود الذي يتلّهى به ووضعه في حجر شريك · فاضطرب شريك
وقال ما هذا ياامير المؤمنين ؟

فقال المهدي : عود أخذه صاحب العسس البارحة فأحببنا ان
يكون كسره على يدي القاضي ·

وقيل لعمرو بن عبيد ماالبلاغة ؟ قال ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار وبصّرك مواقع رشدك وعواقب غيّك • قال السائل ليس هذا أريد • قال عمرو : من لم يُحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع • ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول • قال ليس هذا اريد • قال عمرو : قال رسول الله : «انّا معشر الانبياء فينا بكء» قال الرجل : ليس هذا أريد • قال : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام مالايخافون من فتنة السكوت وسقط الصمت • قال الرجل : ليس هذا أريد • قال عمرو : ياهذا فكأنك تريد تجيد اللفظ في حسن الافهام ! ؟ قال • نعم •

ومن طريف مايروى أيضاً في هذا الباب ـ وهو كثير منثور في كتب الأدب العربي القديمة المشهورة ـ ان بدوياً جاء المدينة شاكياً الى حاكمها • فبلغها مع الليل • ولما قصد الحاكم في قصره •

قال له الحارس : ان الحاكم الآن في طرب بالقانون ولا يستطيع أن يراك • فانصرف ، ثم جاء الصباح فرفع شكواه فرفضها الحاكم • فقال البدوي : بِمَ رُفضَت ؟ قالوا بالقانون • فاستغرب وقال بتهكم لايخلو من مرارة : «ماهذا القانون الذي تطربون به بالليل وتحكمون به بالنهار ؟!» •

وذكر انّ الجاحظ فسرّ كلمة «تلحن» في البيت الثالث من أبيات مالك بن اسماء بن خارجة في وصف جارية :

أمُغَطّيٌ منّي على بصري للحب

أم أنت أكمل الناس حُسنا

وحديث ألذّ مما ينعتُ

الناعتون يوزن وزنا

منطق صائب وتلحنُ أحيانا

وخير الكلام ما كان لحنا

بقوله «يُستظرف من الجارية أن تكون غير فصيحه وان يعتري نطقها اللحن» • وعندما عوتب الجاحظ وقيل له إنّ «تلحن» هنا بمعنى تورّي عن الشيء من فطنتها وذكائها قال «لقد فطنتُ لذلك بعدُ» • فقيل له فغيِّره • فقال كيف لي بما سارت به الركبان !؟

واذا كان الجاحظ ـ العالم اللغوي الفذ قد أخطأ في تفسير معنى الفعل «تلحن» دون النظر الى قرينته في البيت فما بالك بمن هم دون الجاحظ بمراتب في مستوى ثقافتهم اللغوية !؟

أما المجاز بأنواعه لاسيما الكناية والتورية فهو باب واسع رافقته حوادث ممتعه منها مثلاً : ان رجلا قال أتيت الجمحي استشيره في امرأة اردت التزوج بها • فقال : أقصيرة هي ام غير قصيرة ؟ قال الرجل : فلم أفهم ذلك • فقال لي كأنك لم تفهم ماقلتُ !! لقد اردتُ بقولي قصيرة : أهي قصيرة النسب تعرف بابيها أوجدها • وذكر الرواة ان عبدالله بن سلام رأى ثوباً «مُعَصفراً» على رجل فقال له : «لو أنّ ثوبك في تنور أهلك أو تحت قِدْرهم كان خيراً» • فذهب الرجل وأحرق ثوبه • وعندما عوتب عبدالله بن سلام على ذلك قال انما اردت : «لو صرفت ثمنه الى دقيق تخبزه أو حطب تطبخ به كان خيراً» ، وقيل أيضاً أن امرأة وقفت على قيس بن عُبادة فقالت : «أشكو اليك قلة الفأر في بيتي» فقال : املأوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً •

ومن طريف ما يروى أيضاً في هذا الباب أن امرأة جاءت الى عمر بن الخطاب فقالت : ياأمير المؤمنين ان زوجي يصوم النهار ويقوم الليل واني اكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله ، فقال نِعْمَ الزوج زوجك فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب · فقال كعب بن سَوْر ـ وكان حاضراً ـ ياأمير المؤمنين انها تشكو زوجها في مباعدته اياها عن فراشه · ففطن عمر حينئذ وقال له قد وليتك الحكم بينهما ·

وكثيراً ما يحصل في الكناية ـ عند الشعراء مثلاً ـ ابدال لفظة يُسْتَهجَن ذكرها بلفظة اخرى بعيد معناها عن المعنى المقصود : من ذلك مثلاً :

فَصِرْنا الى « الحسنى » ورقَّ كلامنا

ورُضْت فذلَّتْ صعبةٌ أيَّ إذلالِ

ويقول شاعر آخر :

نسوِّد أعلاها وتأبى اصولها

وليس الى ردِّ الشباب سبيل

وقضية الرشيد وابي نواس وخالصة معروفة :

خالصة جارية من جواري الرشيد كانت حسناء · وقد مدح أبو نواس هرون الرشيد بقصيدة فلم يلتفت اليه لانشغاله بهذه الجارية · فأشتد الغيظ بأبي نواس وانصرف وهو واجد على خالصة · وكتب على أحد ابواب المقصورات ·

لقد ضاع شعري على بابكم

كما ضاع عِقْدٌ على خالصة

وبعد أن علم الرشيد استدعاه لمعاقبته · فاتجه ابو نواس الى ناحية الباب فمحا تجويف العين في الموضعين من «ضاع» فصار أول العين مثل الهمزة وصار البيت هكذا :

لقـد ضاء شـعري على بابـكم

كمـا ضاء عِـقْدٌ على خالصه ْ

اما الغموض أو الالتباس في المعنى الذي يحصل أحياناً بفعل التقديم والتأخير وبخاصة في الشعر فهو كثير وممتع أيضاً ·
ولدى ابي الطيّب المتنبي منه الشيء الكثير · قال مثلاً في معرض مدحه شجاع بن محمد الطائي المنبجي :

أنّى يكـون أبا البرّيـة آدمٌ

وابـوك والثقـلان أنت محمد

وقال أيضاً من قصيدة في مدح أبي العشائر :

فأكبـروا فِعْلَـه واصغَـره

أكبرُ من فعلـه الذي فَعَلَـه ْ

وقال أيضاً وهو يمدح أبا الحسين علي بن احمد المرّي :

حَسَـنٌ في عيون اعدائه أقبحُ

مـن ضيفـه وأنـه السَّـوام

مع العلم ان التقديم والتأخير في اللغـة العربية له مواقعـه المتبلورة والمتفق عليها بين المختصين من حيث الأساس وعلى وجـه العموم · ولكن تعسف بعض الكتاب والشعراء في استخدام التقديم والتأخير في غير مواقعه المتفق عليها يثير البلبلة والأرتباك وغموض المعنى كما اتضح ذلك في أبيات المتنبي المار ذكرها ·

وللغة العربية مزايا عجيبة وطريفة اخرى كثيرة تقع خارج نطاق هذه الدراسة لعل من المفيد أن نشير الى بعضها ·

«ان اغراض الناس تختلف في ذكر الافعال المتعدية : فهم يذكرونها تارة ومرادهم ان يقتصروا على اثبات المعاني التي اشتقت منها للفاعلين من غير ان يتعرضوا لذكر المفعولين ، فاذا كان الأمر كذلك كان الفعل المتعدي كغير المتعدي مثلاً في أنك لاترى له مفعولاً لالفظاً ولا تقديراً · ومثال ذلك قول الناس : «فلان يحل ويعقد[٨] · ويأمر وينهى · ويضر وينفع · وكقولهم : هو يعطي ويجزل · يقري ويضيف · والمعنى في جميع ذلك على اثبات المعنى نفسه للشيء على الاطلاق وعلى الجملة من غير أن يتعرّض لحذف المفعول · فان الفعل لا يعدى هناك لأن تعديته تنقض الغرض وتغيرّ المعنى ·· لكن في بعض الحالات يكون اظهار المفعول هو الأحسن وذلك كقول الشاعر :

ولو شئتُ أن ابكي دماً لبكيته

عليه ولكنْ ساحة الصبرِ أوسَعُ

··· وسبب حسنه أنّه كان بِدْع عجيب ان يشاء الانسان أن يبكي دماً · فلما كان ذلك كان الاولى ان يصرح بذكره ويقرره في نفس السامع ويؤنسه به ··· ذكروا ان الكندي ركب يوماً الى العباس وقال له : اني لاجد في كلام العرب حشواً · فقال له أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال أجد العرب يقولون: «عبدالله قائم» ثم يقولون «ان عبدالله قائم» · ثم يقولون «ان عبدالله لقائم» فالالفاظ متكرره والمعنى واحد · قال أبو العباس

---

(٨) دلائل الاعجاز للجرجاني ص ٩١ـ٩٥ ، ٨٦ و ١١١ـ١١٣)

بل المعاني مختلفة لاختلاف الالفاظ · فقولهم : «عبدالله قائم» اخبار عن قيامه · وقولهم «ان عبدالله قائم» جواب عن سؤال سائل · وقولهم : «ان عبدالله لقائم» جواب انكار من ينكر قيامه» ·

وقد تناول اخوان الصفا طرق المعرفة وطبيعة التفكير عند الصغير والكبير والعالم والاختلاف بينهم فقالوا : بأن العلم لايكون الاّ بعد التعليم والتعلم ، والتعليم هو تنبيه النفس العلامة بالفعل للنفس العلامة بالقوة ، والتعلم هو تصور النفس لصورة المعلوم · وان النفس تنال صور المعلومات من طرق ثلاث ، إحداها طريق الحواس والاخرى طريق البرهان والاخيرة طريق الفكر والروية : وقوانين القياسات مختلفة ··· فالصبيان يجعلون قوانين القياسات مختلفة ، كما يجعلون قياساتهم أحوال أنفسهم وآبائهم واخوانهم ، وتصرفهم في الأمور ، وما يجدون في منازلهم من الأشياء ، أصولاً على سائر أحوال الصبيان وتصرف آبائهم وما يكون في منازلهم ، وأما العقلاء البالغون من الناس فانهم يجعلون قوانين قياساتهم ما عرفوه من الأمور في تصرفاتهم وما قد جربوه من الاحوال اصولاً يقيسون بها سائر الأشياء مما لم يشاهدوه ولا جربوه ، بل قياساً الى ماعرفوه · واما العلماء الذين يتعاطون الجدل ودقيق النظر ، فانهم يجعلون قوانين قياساتهم ما قد اتفقوا عليه هم وخصماؤهم أصولاً ومقدمات يقيسون عليها ماهم فيه مختلفون ، سواء أكان ما اتفقوا عليه حقاً أو باطلاً ، صواباً أو خطأ[1] ·

---

(١) رسائل اخوان الصفا (القسم الرياضي)

(٢) ابن بطوطة : محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم الطنجي ، رحالة ومؤرخ وناظم ، ولد بطنجة عام ٧٠٣هـ ، ونشأ بها وطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين وجاوة وأواسط افريقية · وعاد الى المغرب وتوفي بمراكش عام ٧٧٣هـ من أثاره تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار وتعرف برحلة ابن بطوطة ·

ابن بطوطة[٢] :

حدثنا ابن بطوطة في رحلته عن طرق التدريس في جامع دمشق وعن حلقات التدريس في فنون العلم ، وقراءة القرآن وعن المعلمين وتخصص كل منهم بعلم في الفقه أو الحديث أو الخط أو الاشعار الى غير ذلك • ومن يود التفصيل يمكنه الرجوع الى رحلته.

التوحيدي :

لقد كتب ابو حيان التوحيدي في (الهوامل والشوامل) عن التربية العقلية ، وهو يعتبر ان للنفس قوتين احداهما معطيه والاخرى آخذة ، فالقوة الآخذه تسترجع المعارف ، وتشتاق الى تعرف الاخبار ، وبها يوجد الصبيان اول نشوئهم محبين لسماع الخرافات ، فاذا تكهلوا أحبوا معرفة الحقائق • وهذه القوة هي انفعال وشوق الى الكمال الذي يخص النفس،والقوة المعطية تفيض على غيرها ماعندها من المعارف ، وتفيد العلوم الحاصلة لها ، وهذه القوة ليست انفعالاً بل فاعلة • وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض ، فكل انسان يحرص باحدى قوتيه على الفعل ، وهو الاعلام ، وبالاخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام •

وقد ذكر ابو حيان في كتابه الامتاع والمؤانسه عن فضائل العلم ، حيث قال : «انه يكسب صاحبه عشر خصال محموده ، هي : الشرف والعز والغنى والقوة والنبل والقُرب والقدر والجود والحياء والمهابة والسلامة ، ويستشهدون في ذلك بقوله تعالى : «ومن يُؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا» ويصنف (ابو حيان التوحيدي) الناس على ضوء مستوى تفكيرهم العقلي الى اربع اصناف : صنف عقولهم مغمورة بشهواتهم فهم لا يبصرون بها الا حظوظهم المعجلة ، وصنف عقولهم منتبهة لكنها مخلوطة بسبات

الجهل ، فهم يحرصون على الخير واكتسابه ، ويخطئون كثيراً . وصنف عقولهم ذكية ملتهبه ، لكنها عمية عن الآجلة ، فهي تدأب في نيل الحظوظ بالعلم والمعرفة والوصايا اللاطيفة . وصنف عقولهم مضيئة بما فاء عليها من عند الله تعالى باللطف الخفي .

الجاحظ[٣] :

للجاحظ آراء تربوية كثيرة وردت في كتبه ورسائله ومنها ما جاء في رسالته الموسومة «في المعلمين» ؛ كتب الجاحظ في صدرها العبارات التالية : وفيها خروج ضمني على موقفه الذي انسم ازدراء المعلمين كما ورد ذلك في اماكن متعددة من «كتاب البيان والتبيين» : قال الجاحظ يخاطب نفسه على مانظن :

«اعانك الله على سورة الغضب وعصمك من سرف الهوى وصرف ما اعارك من القوة الى حب الانصاف ... فقد استعملت في المعلمين نوف السفهاء ، وخطل الجهلاء ومناقشة الابذياء ومجانبة سبل الحكماء ...» .

ويستطرد الجاحظ فيصف أهمية الكتاب الذي هو مادة المعلم ودليله ومرشده في مهنته ويعود ثانية الى نقد موقفه السابق من المعلمين فيقول :

---

(٣) الجاحظ : عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، البصري ، المعروف بالجاحظ (ابو عثمان) عالم واديب ، كتب في انواع مختلفة من العلوم ، ولد بالبصرة عام (١٥٠هـ/٧٦٧م) وتوفي عام (٢٥٥هـ/٨٦٩م) ، سمع عن الأصمعي وابي زيد الانصاري ودرس النحو على الأخفش واخذ الكلام عن النظام والفصاحة عن العرب بالمربد ، اقام مدة في بغداد . من مؤلفاته الكثيرة : الحيوان ، البيان والتبيين، البخلاء ، العثمانيه ، مجموعة رسائل منها رسالة التربيع والتدوير ورسالة في المعلمين .

«ولولا الكتاب لاختلت اخبار الماضين وانقطعت آثار الغائبين وانما اللسان للشاهد لك والقلم للغائب عنك وللماضي قبلك والعابر بعدك فصار نفعه أعم والدواوين اليه أفقر والملك المقيم بالواسطة لايدرك مصالح اطرافه وسد ثغوره وتقويم سكان مملكته الا بالكتاب . ولولا الكتاب لما تم تدبير ولا استقامت الأمور ورأينا عمود صلاح الدين والدنيا انما يعتدل في نصابه ويقوم على اساسه في الكتاب والحساب . وليس علينا لاحد في ذلك من المنّة بعد الله الذي اخترع لنا «ودلنا عليه واخذ بنواصينا اليه ما للمعلمين الذين سخّرهم لنا ووصل حاجتهم الى ما في ايدينا . وهؤلاء الذين هجوتهم وشكوتهم وحاجتهم وفحشت عليهم والزمت الاكابر ذنب الأصاغر وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصّرين ورثيت لاباء الصبيان من إبطاء المعلمين عن تحذيقهم ولم ترث للمعلمين من إبطاء الصبيان عمّا يراد بهم وبعدهم عن صرف القلوب لما يحفظونه ويدرسونه . والمعلمون اشقى بالصبيان من رعاة الضان وروّاض المهارى . ولو نظرت من جهة النظر علمت ان النعمة فيهم عظيمة سابغة والشكر عليها لازم واجب» .

ثم يتبسط الجاحظ في توضيح المعنى الضمني الذي تحمله كلمة «معلم» وأهمية تبادل الرأي والمناقشة فيقول : «واجمعوا على انهم لم يجدوا كلمة أقل حرفاً ولا أكثر ريعاً ولا اعم نفعاً ولا أحث على بيان اوعى على تبيين ولا أهجى لمن ترك التفهم وقصر في الافهام من قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه «قيمة كل امرىء مايحسن» . وقد احسن من قال : مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها . وكرهت الحكماء الرؤساء اصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه واغفال العقل من التميز

حتى قالوا الحفظ عذق الذهن ولان مستعمل الحفظ لايكون الا مُقلّداً • والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه الى برد اليقين وعز الثقة • والقضية الصحيحة والحكم المحمود انه متى أدام الاستنباط أضرّ ذلك بالحفظ وان كان التحفظ اشرف منزلة منه• ومتى أهمل النظر لم تسرع اليه المعاني ومتى اهمل التحفظ لم يعلق بقلبه وقلّ مكثها في صدره • وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط» • ثم يقول بصدد موقف المعلم من التلاميذ ومنزلته في المجتمع :

«ويستدل ايضاً بوصايا الملوك للمؤدّبين في ابنائهم وفي تقويم أحداثهم على انهم قلّدوهم امورهم وضميرهم بلوغ التمام في تأديبهم • وما قلدوهم الاّ بعد أن ارتفع اليهم في الحنو حالهم في الأدب وبعد ان كشفهم الامتحان وقاموا على الخلاص • وانت ـ حفظك الله ـ لو استقصيت عدد النحويين والعروضيين والفرضيين والحُسّاب والخطاطين لوجدت أكثرهم مؤدّب كبار ومعلم صغار• فكم تظن انا وجدنا منهم الرواة والقضاء والحكماء والولاة من المناكير والدهاة ومن الحماة والكفاة ومن القادة والذّادة ومن الرؤساء والسادة ومن كبار الكتاب والشعراء والوزراء والادباء ومن اصحاب الرسايل والخطابة والمذكورين بجميع اصناف البلاغة ومن الفرسان واصحاب الطعان ومن نديم كريم وعالم حكيم ومن مليح ظريف ومن شاب عفيف • ولاتعجل بالقضية حتى تستوفي آخر الكتاب وتبلغ أقص العذر فانك ان كنت تعمدت تزممت وان كنت جهلت تعلمت • وما اظن من احسن بك الظن الا وقد حالف الحزم» •

والمعلم ـ بنظر الجاحظ ـ هوكل صاحب صنعة يتقنها ويحسنها ويعلمها الاخرين بجد وامانة وحرص ، وهذا يشمل ايضاً مدربي الحيوانات :

«قال المعلم : وجدنا كل صنف من جميع ما بالناس الى تعلمه حاجة معلمين كمعلم الكتاب والحساب والفرايض والقرآن والنحو والعروض والاشعار والأخبار والآثار ٠ ووجدنا الاوائل كانوا يتخذون لابنائهم من يعلمهم الكتاب والحساب ثم لعب الصوالجه والرمي ٠٠٠ والفروسية واللعب بالرماح والسيوف والمشاولة والمنازلة والمطاردة ثم النجوم والالحان والطب والهندسة وتعلم النرد والشطرنج وضرب الدفوف وضرب الاوتار والوقع والنفخ في اصناف المزامير ويأمرون بتعليم ابناء الرعيه الفلاحة والنجارة والبنيان والصياغة والخياطة ٠٠٠ وأنواع الحياكة ٠ نعم حتى علّموا البلابل وأصناف الطير الالحان وناساً يعلمون القرود والدببة والكلاب والظباء المكببة والببغاء ٠٠٠ وغراب البين ، ويعلمون الأبل والخيل والبغال والحمير والفيلة أصناف المشي وأجناس الحيل ٠ ويعلمون الشواهين والصقور الصيد ٠٠ ويعلمون الدواب الطحن ٠٠ ووجدنا للاشياء كلها معلمين ٠ وانما قيل للانسان العالم الصغير سليل العالم الكبير لان في الانسان من جميع طبائع الحيوان اشكالاً من حيل الذئب وروغان الثعلب ووثوب الأسد وحقد البعير وهداية القطاة ٠ وهذا كثير ٠ وهذا بابه ولانه يحكي كل صوت بفمه ٠ ويصوّر كل صورة بيده ٠ ثم فضّله الله تعالى بالمنطق والروية وامكان التصرف ٠ وعلى أنا لانعلم أن لاحد من جميع أصناف المعلمين لجميع هذه الاصناف كفضيلة المعلم من الناس الاحداث هي المنطق المنور ككلام الاحتجاج والصفات والمناقلات من المسائل والجوابات في جميع العلامات بين الموزون من القصائد والارجاز من المزوج والاسماع مع الكتاب والحساب وما شاكل ذلك ووافقه واتصل به وذهب مذهبه» ٠

وبصدد موقفه من المعلمين على وجه الاجمال ذكر الجاحظ ان المعلمين عنده على ضربين: منهم رجال ارتفعوا عن تعليم اولاد العامة الى تعليم اولاد الخاصة، ومنهم رجال ارتفعوا من تعليم اولاد الخاصة الى تعليم اولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف نستطيع أن نزعم ان مثل علي بن حمزة الكسائي ومحمد بن المستنير الذي يقال له قُطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى (لايجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم · فان ذهبوا الى معلمي كتاتيب القرى فان لكل قوم حاشية وسَفِلة · فماهم في ذلك كغيرهم · وكيف نقول مثل ذلك على هؤلاء ومنهم الفقهاء والشعراء والخطباء ! ؟ مثل الكميت بن زيد وعبدالحميد الكاتب وقيس بن سعده وعطاء بن أبي رباح ومثل عبدالكريم بن أبي أميّه وحسين المعلم وأبي سعيد المعلم · ومن المعلمين الضحاك بن مزاحم · واماّ سعيد وعامر الشعبي فكانا يعلمان اولاد عبدالملك بن مروان ·وكان معبد يعلم سعيداً بن عبدالملك بن مروان · ومنهم ابو سعيد المؤدّب وعبدالصمد بن عبدالاعلى وكان معلم عتبة بن ابي سفيان · وكان اسماعيل بن علي ألزم بعض بنيه عبدالله بن المقفع ليعلمه · وكان ابو بكر بن كيسان معلماً · ومنهم محمد ابن السكن · وما كان بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم ولا أحْسَن بياناً من أبي وزير وأبي عدنان المعلمين · وحالهما من اول ما اذكر من أيام الصبا · وقد قال الناس في أبي البيداء وفي أبي عبدالله الكاتب وفي الحجاج وابيه ما قالوا · وقد أنشدوا مع الخبر شاهداً من الشعر على ان الحجاج واباه كانا معلمين بالطائف) ·

ثم يتحدث الجاحظ عن الأصل الاشتقاقي لكلمة «معلم» فيقول: «وقالوا انما اشتق اسم المعلم من العلم واسم المؤدب من الأدب · وقد علمنا ان العلم هو الأصل والادب هو الفرع · والادب اما خلق واما

رواية • وقد اطلقوا له اسم المؤدِّب على العموم • والعلم أصل كل خير وبه ينفصل الكرم من اللؤم • والحلال من الحرام • والفصل من الموازنة بين أفضل الخيرين والمقابلة بين انقص الشرين • فلم يعرضوا لاحدمنهذه الاصناف التي اتخذ الناس لها المعلمين من جميع أنواع الحق والباطل والسرف والاقتصاد والجد والهزل الاّ هؤلاء الذين لايعلِّمون الاّ الكتاب والحساب والشعر والنحو والفرائض والعروض» •

كتب الجاحظ عنطبيعة الطفل والدوافع التيتقوم باثارتها عنده،ولابدّ انيكون للتعلم دافع،كما تطرق الىالظواهر العضوية والظواهر النفسية واثرها في تنشئة الطفل ، والى وظيفة الاعضاء واهمالها وتركها يفضي الى ضعفها أو تدهورها وفي ذلك قوله : «متى ثقل الدرس تثاقلت النفس وتقاعست الطبيعة ، ومتى دام الاستثقال احدث الهجران واذا تطاول الكدّ رسخ الزهد ، وفي ترك النظر عمي البصر» • ويربط بالجانب المحرك والفعّال للنفس (ويعني بذلك الحاجات) وبوظائفها الشعورية واللاشعورية، وفي ذلك يقول : «وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما انه على قدر غريزة العقل تصح الحوائج وتَسقُم ، وعلى قَدْر كثرة الحاجة تتحرك الجارحة ويتصرف اللسان ، ومع قلة الحركة وبُعد العهد بالتصرف يحدث العيّ ويظهر العجز ويبطيء الخاطر» •

وفي رسالته في المعلمين يشير الجاحظ الى التربية واثرها في الصحة العقلية فيقول : «العقل أطول رقدة من العين واحوج الى الشحذ من الشيب وافقر الى التعاهد وأسرع الى التغيير ••• فمن تداركه قبل التفاهم أدرك اكثر حاجته ومن راحه بعد التفاقم لم يدرك شيئاً من حاجته ومن أكبر أسباب العلم كثرة الخواطر ثم معرفة وجوه المطالب في الخواطر • وللمطالب طرق ولدرك

الحقائق أبواب فمن اخطأها ونظر كان أسوا حالاً ممن لم يخطئها ولم ينظر وعلى قدر صحة العقل يصح الخاطر وعلى قدر التفرغ يكون التنبه» .

وفي كتاب (الحيوان) يتناول الجاحظ مسألة الحفظ والاستنباط ، فيبين ميزات كل منهما ، ويؤكد على ضرورة التلازم والترابط بينهما ، وان الأخذ بالنقل والحفظ دون التفكير والاستنتاج العقلي يضر بصاحبه ، كما ان الاعتماد على العقل والاستنباط فقط يضر بالحفظ وطبيعة الحفظ هي غير طبيعة الاستنباط ، فيقول في ذلك : «وقد احسن من قال : مذاكرة الرجال تلقيح لالبابها وكرهت الحكماء الرؤساء اصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه واغفال العقل من التمييز ، والحكم المحمود انه متى ادام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ومتى ادام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ ... ومتى اهمل النظر لم تسرع اليه المعاني ومتى اهمل الحفظ لم يعلق بقلبه وقل مكثها في صدره وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط» . ويستشهد الجاحظ على رأيه بقول الامام علي (رض) : «قيمة كل امرىء ما يحسن» .

يؤكد الجاحظ في احدى رسائله على أهمية الاعتراف للطفل بشخصيته وحمله على استعمال اللغة الصحيحة، ومشاركته الوجدانيه فيما يحس به ويشعر ، والتعبير عما في ذات نفسه على قدر معرفته وعلى مقدار ثروته اللغوية التي اخذها من مربيه ومؤدبيه ، ومما جاء في ذلك قوله : «ألا ترى أن ابلغ الناس لساناً وأجودهم بياناً وأدقهم فطنة وابعدهم رؤية لو ناطق طفلاً أو ناغى صبياً لتوخى حكاية مقادير عقول الصبيان والشبه لمخارج كلامهم وكان لايجد بداً من أن يتصرف عن كل مافضله الله به بالمعرفة الشريفة والالفاظ الكريمة» .

وفي رسالة اخرى له يتناول موضوع الثواب والعقاب وماهية السياسة التي ينبغي على المعلم او القائد التربوي ان يتبعها ويتصرف وفق مضمونها في تمكنه من ضبط مشاعره الخاصة والسيطرة على نفسه عند تدبير شؤون رعيته في البيت او الصف او في اي مجال آخر ، فالرغبة والرهبة لدى الجاحظ اصلاً لكل تدبير ، وان وضع الامور في نصابها واستعمال الاشياء على وجهها الصحيح من قبل المربّي يجعله في موضع الثقة والاعتزاز والتقدير من قبل الاخرين، وعكس ذلك يورد المباعدة وانقطاع العلائق الوجدانية بين المعلم والمتعلم ، وفي هذا الصدد قوله : «الرغبة والرهبة اصلاً في كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عظمت او صغرت ... واعلم انّ اجراءك الأمور مجاريها ، واستعمالك الاشياء على وجوهها يجمع لك الفة القلوب ، فيعا ملك كل من عاملك بمودة أو أخذ أو اعطاء وهو على ثقة من بصرك بمواضع الانصاف وعلمك بموارد الامور واعلم أنّ اثرتك على غير النصيحة والشفقة والحرمة والكفاية يوجب لك المباعدة ، وان شخصية المربي القلقه وتصرفاته غير المنضبطة والمتوازنه وميزانه للامور بغير الحق : وتفضيله البعض على البعض الآخر دون استحقاق ودون تمييز الجيد والرديء بسبب هوى معين فانها توجب السخط على صاحبها وينقلب النفع ضرراً والاصلاح فساداً فتقديم نتائج العمل التربوي يجب ان تكون وفق مباديء تربوية عادلة وسليمة ، فالثواب والعقاب ينبغي ان يتم على ضوء هذا التقويم المنصف من المربي الذي يفترض فيه المعرفة والحكمة والرأي السديد مع توفر العاطفة الانسانية النبيلة الصادقة ، والتجرد من الانانية والذاتية والفردية . وقد جاء في رسالته قوله : «لاتؤثر في ذلك احداً لهوى ، فان الاثرة على الهوى توجب السخطة ، وتوجب استصغار عظيم النعمة ، ويمحق بها

الافضال ، وتفسد عليها الطائفتان : مَنْ اثرت ومن آثرت عليه ، أما مَنْ آثرت فانه يعلم انك لم تؤثره باستحقاق بل لهوى فهو مترقب ان ينتقل هواك الى غيره ... واما مَنْ آثرت عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلت السبيل الى الطعن عليك ، واعطيته الحجة على نفسك فكل من يعمل على غير ثقه عاد ما اراد به النفع ضرراً ، والاصلاح فساداً ... فاجعل العدل والنصفة في الثواب والعقاب حاكماً بينك وبين اخوانك ، فمن قدّمت منهم فقدمْه على الاستحقاق وبصحة النيّة في مودته ... الخ» .

ويهتم الجاحظ بالتربية العقلية وحاجة العقل الى الرعاية والتعهد ، فهو عرضة للتأثر والانحراف والمرض،فرعايته واصلاحه تكون بالعلم من حيث محتواه وطريقته كّماً وكيفاً ، فعلى قدر صحته تصحّ النفوس ، وعلى قدر التفرغ يكون التنبّه ، فانْ كان المحتوى فاسداً فسدَ العقل والضمير ، ومَنْ اخطأ الطريقة كان اسوأ حالاً ممن لم يخطئها . وفي هذا المعنى له قول في التربية العقلية «لسان العاقل من وراء قلبه ، فاذا اراد الكلام تفكرّ ، فان كال له قال ،وان كان عليه سكت ، وقلب الجاهل من وراء لسانه ، فان همّ بالكلام تكلم به له أو عليه» .

كما يشير الجاحظ الى التربية واثرها في الصحة العقليه بقوله: «العقل أطول رقدة من العين واحوج الى الشحذ من الشيب وافقر الى التعاهد وأسرع الى التغير ... فمن تداركه قبل التفاهم أدرك أكثر حاجته ومن رامه بعد التفاقم لم يدرك شيئاً من حاجته ومن أكبر اسباب العلم اكثرة الخواطر ثم معرفة وجوه المطالب في الخواطر . وللمطالب طرق ولدرك الحقائق أبواب فمن أخطأها ونظر كان أسوأ حالاً ممن لم يخطئها ولم ينظر وعلى قدر صحة العقل يصح الخاطر وعلى قدر التفرغ يكون التنبه» .

ثم ينتقل الجاحظ الى الحديث عن الادب فيقول :

«وقد ذهب قوم الى أن الادب حرف وطلبه شؤوم وانشدوا قول الشاعر :

ما ازددتُ في أدبي حرفاً أسرّ به

الا تزيدت حرفاً تحته شُؤمُ

ان المقدم في حُرق بصنعته

أنّى توجّه فيها فهو محرومُ

ولم نرَ شاعراً نال بشعره الرغايب ولا أديباً بأدبه المراتب» .

ثم يثير الجاحظ قضايا تربوية طريفه : «وقد قالوا الصبي عن الصبي أفهم وبه أشكل وكذلك الغافل والغافل والأحمق والأحمق والغبي والغبي والمرأة والمرأة . قال الله تبارك وتعالى : (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) ، لان الناس عن الناس أفهم واليه اسكن فمما اعان الله تعالى الصبيان ان قرّب طبايعهم ومقادير عقولهم من مقادير عقول العالمين . وسمع الحجاج ـ وهو يسير ـ كلام امرأة من دار قوم فيه تخليط وهذيان فقال مجنونه أو ترقّص صبياً . الاترى ان ابلغ الناس لساناً وادّقهم فطنة وابعدهم رؤية لو ناطق طفلاً أو ناغى صبياً توخّى حكاية مقادير عقول الصبيان والشبه لمخارج كلامهم . وكان لايجد بدأ من أن يصرف عن كلما فضّله الله به بالمعرفة الشريفة والالفاظ الكريمة . وكذلك يكون مشاكلة بين المتفقين في الصناعات» .

ثم يبدي الجاحظ رأياً صائباً ـ بمقاييسنا التربوية الراهنة ـ بصدد تعليم النحو للصبيان والفرق بين معرفة أصحاب الاختصاص ومعرفة غيرهم :

«وأما النحو فلا تشغل قلبهم منه الا ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ومقدار جهل العوام في كتاب ان كتبه وشعر ان انشده وشيء ان وصفه • وما زاد عن ذلك فهو مشغلة عمّا هو أولى به ومذهل عمّا هو أرد عليه منه من رواية المثل الشاهد والخبر الصادق والمعنى البارع • وانما يرغب في بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصاد فيه من لايحتاج الى تعرف جسيمات الأمور والاستنباط المتدبر ولمصالح العباد والبلاد والعلم بالاركان والقطب الذي تدور عليه الرحى ومن ليس له حظ غيره ولامعاش سواه • وعويص النحو لايجري في المعاملات» •

ثم ينتقل الى تعليم الصبيان الحساب ويوازن بينه وبين تعلم النحو [وفروع اللغة الاخرى] فيبدي رأياً صائباً من حيث الاساس بمقاييسنا التربوية الحديثة : «وأنا أقول ان البلوغ في معرفة الحساب الذي يدور عليه العمل والتوقي فيه والسبب اليه أرد عليه من البلوغ في صناعة المحررين ودروس الخطاطين • لان في ادنى طبقات الخط مع صحة الهجاء بلاغاً وليس كذلك حال الحساب • ثم خذه بتعريف حجج الكتاب وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ الى المعنى الغامض • واذقه حلاوة الاختصار وراحة الكفاية وحذره التكلف •• فان أكرم ذلك ماكان ابهاماً للسامع ولايحوج الى التأويل والتعقب ويكون مقصورا على معناه لامقصرا عنه ولا فائضا عليه • فاختر من المعاني مالم يكن مستوراً باللفظ ••• والخلاصة : ان لكل معنى شريف أو وضيع هزل أو جد ••• ضرباً من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه الذي لاينبغي ان يجاوزه ويقصر دونه • ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل صواب ومن نظر فيها ليستفيد الالفاظ فهو على سبيل الخطأ والخسران ••• ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه أنا أشعر منك • قال صاحبه : لِمَ ذاك ؟ قال لاني أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه» •

لقد سَرَّ بنا رأى الجاحظ في تعليم النحو للصبيان والفرق بين معرفة المختص وبين المعرفة العامـة لغير المختص • وهذا رأي وجيه ذكره ابن السِّكِّيت أيضاً حين قال «وخُذْ من النحو ماتُقيم به الكلام ودَعْ الغوامض» • ذلك فان «ماتقيم» «به الكلام» ليس بالأمر الهين ولا يعني مطلقاً أن يكون المرء سطحياً في النحو وهو لب اللغة العربية ، قيـل ان رجـلاً اسـتأذن على ابراهيم النخعي [أو الحسن البصري] فقال «أبا عمران» أو «أبا سعيد» في الدار ؟ فلم يجبه • فقال : «أبي عمران» أو «أبي سعيد» في الدار ! ؟ • فناداه : قل الثالثة وادخل • والنحو وثيق الصلة بالدين الحنيف • ذكر ياقوت في معجم الادباء مـا يلي : «ألا ترى ان القاريء • اذا قرأ» أن الله بريء من المشركين ورسـوله ـ بالرفع ـ فقد سـلك طريقاً من الصواب واضحاً وركب منهجاً في الفضل لائماً ! فان كسر اللام من «رسوله» كان كفراً بحتاً وجهلاً قُحاً•وقد رويأن أبا العلاء كان يقول إتقان العربية يجعـل المـرد أفضل في الدنيا والآخرة • فقيل له هو أفضل في الدنيا لفضل فصاحته وعربيته• أرأيت الاخرة ما باله فَضَلَ فيها ! قال انه يقـرأ كتاب الله على ما انزله الله • والذي يلحن يحمله لحنه على ان يُدخل في كتاب الله ماليس فيه ويُخرج منه ماهو فيه • قال : قلت صدق الأمير» •

وعن عمرو بن ابي عمرو الشيباني عن أبيه : «قال تكلَّم أبو جعفر المنصـور في مجلس فيه أعرابي فَلَحن • فصَّر الأعرابي أذنيه • فلحن مرة اخرى أعظم من الأولى فقال الاعرابي أفٍّ لهذا• ماهذا ؟ ثم تكلم فلحن الثالثة • فقال الاعرابي اشهد لقد وليِّتَ هذا الأمر بقضاء وقدر» •

وذُكر أن طاهر بن الحسين مَّر على الكوفة وكان العباس بن محمد بن موس والياً على الكوفـة • فوجّـه العباس كاتبه اليه • فلما دخل على طاهر قال له : اخيك ابي موس يقرأ عليك السلام • قال : وما أنت منه ؟ قاء كاتبـه • قـال نعـم عليٌّ بغيسىُ بـن عبدالرحمن • قال فجاء • وكان عيس كاتب طاهر • فقال : اكتب وانت قائم يصرف العباس بن محمد بن موسى عن الكوفـة اذا لم يتخذ كاتباً يُحسن الاداء عنه» •

وبصدد أهمية النحو في سائر العلوم يمكننا أنْ ـ نسـتشهد ايضاً ـ بالاضافة الى ماذكرناه ـ بما قاله حمّاد بن سَـلـَمة بن دينار شيخ البصرة في الحديث والعربية والفقـه الذي أخذ عنه يونس بن حبيب النحويوكانسيبويه يستملي عليه أيضاً • كان حماد يقول : مَنْ لَحنَ في حديثي فقد كذب عليَّ • ومن طريف مايروى في هذه المناسبة أنَّ حماد أمر سيبويه ان يكتب الحديث الشريف الذي ستأتي الاشارة اليه «ما من أحد من أصحابي الا لو شئت لاخـذت عليه ليس أبا الدرداء» • فقال سـيبويه ليس أبـو الدرداء فقال حماد : لحنت ياسيبويه • فقال سيبويه لاجَرم ساطلبنَّ علماً لانُلحنن فيه •

ويجري هذا المجرى مارُوي عن الكسائي انه قال : أجتمعتُ أنا وأبو يوسف القاضي عند هرون الرشيد • فجعل أبو يوسف يذم النحو • فقلت له ما تقول في رجل قال لرجل : أنا قاتلُ غلامك • وقال لآخر : انا قاتلٌ غلامَك • ايهمـا كنت تأخذ بـه • فقـال آخذهما جميعاً • فقـال الكسـائي اخطـأت يا ابا يوسف : الذي يُؤخَذ بقتل الغلام هو الذي قال : أنا قاتل غلامِك [بالاضافـة] لأنه فعل ماض • امّا الذي قال انا قاتلٌ غلامَـك (بالنصب) فلا يؤخَذ لانه مستقبل : لم يكن بَعدُ كما قال الله «ولا تقولن لشيء

إني فاعل" ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله» ثم خاطب الكسائي ابا يوسف: ماتقول لرجل قال لامرأته أنت طالق إنْ دخلت الدار» فقال ابو يوسف ان دخلت الدار طُلقتْ. فقال الكسائي : خطأ. اذا فُتحتْ «أنْ» وجب الأمر. واذا كُسرتْ فانه لم يقع الطلاق بعدُ.

ابن جبير[٤] :

يحدثنا ابن جبير في كتابه (الرحلة) عن جانب من جوانب العملية التربوية في القرن السادس الهجري من خلال زيارته بغداد (مدينة السلام) وحضوره دروساً لفقيه المدرسة النظامية في العلوم الأصوليه الامام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية. ويشرح طبيعة التدريس واسلوبه والاهتمام بنظام الجلوس، والتلاوة والرغبة الصادقة في طلب العلم، ثم النقاش والاستجواب الذي كان يدور بين الاستاذ وطلبته، فيبادر الاستاذ بتوجيه الاسئلة في المسائل التي يراد فهمها، وبعد أن تنتهي الاسئلة يأخذ الشيخ بالاجابة على ماقدم اليه من الاسئلة التحريرية بقصاصات الورق فيجيب عليها الواحدة تلو الأخرى. وكان مجال المناقشة مفتوحاً أمام الطلاب، فالواحد منهم لايقتنع بمجرد السماع بل يعتني بالبحث والسؤال والمناقشة ليستطيع فهم جميع المسائل العلمية كما كانت للمناقشات اداب خاصة. فيقول في هذا : «حضرنا مجلسه. (اي الامام القزويني بالمدرسة اثر صلاة العصر ... فصعد المنبر، واخذ القرّاء أمامه في القراءة على كراسي موضوعه، فتوقوا

---

(٤) ابن جبير : محمد بن جبير الكناني، البلنسي (ابو الحسين)، أديب، ناظم، ولد ببلنسية عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م وعني بالاداب ورحل الى المشرق وسمع على فقهاء مكة ثم رحل ثانية الى بغداد ودمشق وعاد الى المغرب، ثم رحل ثالثة وجاور بمكة والقدس. توفي بالاسكندرية عام ٦١٤هـ/١٢١٧م. من آثارة : رحلة ابن جبير، ديوان شعر، نظم الجان في التشكي من اخوان الزمان.

وشوقوا ، واتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجه مطربه ، ثم اندفع الشيخ الامام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف في افانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل ، وايراد حديث رسوله (ص) والتكلم عن معانيه ، ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب ، فاجاب ، وما قصّر ، وتقدّم وما تأخر ، ودفعت اليه عدة رقاع منها ، فجمعها جملة في يده يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها الى ان فرغ منها» ٠

كما يذكر ابن جبير انّ عدد المدارس في بغداد آنذاك كان نحو الثلاثين وكلها بالجانب الشرقي ، واشهرها النظامية[٥] ، وهي التي ابتناها نظام الملك ٠ ولهذه المدارس اوقاف وعقارات تصرف اموالها كجرايات خاصة على الفقهاء والمدرسين ، وتعطى المنح كذلك للطلبة المنقطعين والمحتاجين ، وفي هذا يقول : «والمدارس نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقيه وما منها مدرسة الا وهي يقصر البديع عنها ، واعظمها واشهرها النظامية،وهي التي ابتناها نظام الملك، وجددت سنة اربع وخمسمائة ٠ ولهذه المدارس اوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير الى الفقهاء المدرسين بها ، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم ، ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات (المستشفيات) شرف عظيم وفخر مخلد» ٠

وفي فصل آخر يحدثنا ابن جبير في رحلته عن نظام التعليم وحلقات التدريس في جامع دمشق ، حيث كان المدرسون فيه يتقاضون الأجور لقاء اتعابهم،فيجلسون بعد تلاوة القران صباحاً كل يستند الى سارية ويجلس امامه صبي يلقنه القرآن ، كما كانوا يعلمون الصبيان الخط ، ويسمى معلم الخط (المكتب) ٠ وفي المسجد مأوى للفقراء والايتام من الطلاب ٠ وفي هذا الصدد يقول:

---

(٥) المدرسة النظامية:اسستفي بغدادسنة ٤٥٩ هـفيعهد الخليفةالقائم٠

«وفيه أوقات للتدريس للطلبة (ويقصد جامع دمشق) ، وللمدرسين فيها اجراء واسع ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء واهل الطلب كثيرة واسعة ٠٠٠ وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحاً يستند كل انسان منهم الى سارية ويجلس امامه صبي يلقنه القرآن٠ وللصبيان ايضاً على قراءتهم جراية معلومة ٠ فأهل الجدة من ابائهم ينزهون ابناءهم عن اخذها ٠٠٠ وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير ، ياخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم ، وهذا ايضاً من أغرب مايحدث به من مفاخر هذه البلاد ٠٠٠٠ وقد يكون في اكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة فينفصل من التلقين الى التكتيب ، لهم في ذلك سيرة حسنة» ٠

ابن الجزار[٦] :

يحدثنا ابن الجزار في كتاب (سياسة الصبيان وتدبيرهم) عن أهمية التربية وتأثيرها في طباع الطفل وعن الفوارق العقليه والنفسية فيما بينهم ، فيقول : «قد نجد من الصبيان من يقبل الأدب قبولاً سهلاً ، ونجد منهم من لايقبل ذلك ، وكذلك قد نجد من الصبيان من لايستحي ، ونجد منهم من هو كثير الحياء ، ونجد منهم من يعني بما يعلمه ويتعلمه بحرص واجتهاد ، ونجد من هو يمل التعليم ويبغضه ، وقد نجد أيضاً في ذوي العناية منهم وذوي العلم من اذا مدح تعلم علماً كثيراً ، ومنهم مَنْ يتعلم اذا عاتبته أو عاتبه المعلم ووبخه ومنهم لايتعلم الا للفرق من الضرب٠٠٠٠

---

(٦) ابن الجزار:احمد بن ابراهيم بن ابي خالد (ابوجعفر)طبيب،مؤرخ، من كتبه : زاد المسافر في علاج الامراض،التعريف بصحيح التاريخ، سياسة الصبيان ، توفيعام ٣٩٥ هـ ٠
ولادته مجهولة ٠ (الفكر التربوي عند العرب ص ٤١٨) ٠

وقد نرى من الصبيان محبّاً للكذب ونرى فيهم محبّاً للصدق ويرى فيهم اختلاف في الاخلاق ومضادة كثيرة بالطبع ··· الخ» · وفي اختلاف الطباع وتأثير التربية فيها يقول : «أفترى الأدب ينقل الطبع المذموم الى الطبع المحمود ؟ فلعمري انه لكذلك وانما أوتي صاحب الطبع المذموم من قبل الاهمال في الصبيان وتركه مايعتاد مما تميل اليه طبيعته فيما هي مذمومة أو يعتاد اشياء مذمومة ايضاً لعلها ليست في غريزته ··· فلذلك امرنا نحن أن يؤدب الصبيان وهم صغار ، لانهم ليس لهم عزيمة تصرفهم لما يؤمرون به من المذاهب الجميلة والأفعال الحميدة والطرائق المثلى اذا لم تغلب عليهم عادة رديئة تمنعهم من اتباع مايراد بهم من ذلك ، فمن عوّد ابنه الأدب والأفعال الحميدة والمذاهب الجميلة في الصغر حاز بذلك الفضيلة ونال المحبة والكرامة وبلغ غاية السعادة ، ومن ترك فعل ذلك وتخلى عن العناية به أداه ذلك الى عظم النقص والخسارة ، ولعله يعرف فضيلة ذلك في وقت لايمكنه تلافية واستدراك مافاته منه (والمراد هنا الاهتمام بتربية الطفل منذ نشأته أفضل وأيسر من إعادة تربيته) فتحصل له الندامة التي هي ثمرة الخطأ ، وذلك قد نرى من الناس مَنْ يعلم ان مذاهبه رديئة ولايخفى عليه الطريق المحمود ويعسر عليه النزوع اليه لتقدم العادة المعتادة فيهم ··· وكذلك فعل العادة في الاشياء المحسوسة الفاضلة · فان رأيت صبياً فيه طبيعة جيدة وعادته صالحة فانه لاتفارقه الخصال المحمودة الشريفة ، لانه طبع عليها من جهتين ، كما انّ ذلك لاتفارقه الخصال المذمومة الدنيئه لانه طبع عليها من هاتين الجهتين اعني العادة والطبيعة ، مع ان بعض الحكماء قال : «العادة طبيعة ثانية» · فأما ان كان الصبي طبيعته

جيدة ، اعني ان يكون مطبوعاً على الحياء وحب الكرامة والألفة محباً للصدق فانّ تأديبه يكون سهلاً ، وذلك انّ المدح والذم يبلغان منه عند الاحسان أو الاساءة مالا تبلغه العقوبة من غيره ، فان كان الصبي قليل الحياء مستخفاً للكرامة قليل الالفة محباً للكذب ، عَسُر تأديباً» ٠

نلاحظ في آراء ابن الجزار على التأكيد بضرورة الاهتمام بالتربية الجماعية وأثر ذلك في سلوك الطفل ٠

ابن جماعة(٧) :

وضع ابن جماعة مواصفات خاصة للمرّبي وشروطاً في طرق التدريس العامة نلخص منها ما يأتي :

١ ـ أنْ يكون متزناً وواثقاً من نفسه عند الجلوس ولا رافعاً رجله على الاخرى ولا ماداً رجليه أو أحدهما ولامتكئاً على يده الى جنبه وراء ظهره ٠

٢ ـ أن يصون بدنه على الزحف والتنقل من مكانه ويديه عن العبث والتشبيك بها ، وليتق المزاح وكثرة الضحك ، فانه يقلل الهيبة ويسقط الحشمة ٠

٣ ـ لايدرس في وقت جوعه أو عطشه أو هّمه او غضبه او نعاسه أو قلقه ولا في حال برده المؤلم وحّره المزعج ، فربما أجاب أو أفتى بغير الصواب ٠

---

(٧) ابن جماعة : محمد جماعة الحموي (بدر الدين) ، مفسر ، فقيه ، اصولي ، متكلم ، محدث ، مؤرخ ، اديب ، كاتب وشاعر ، ولد بحماة سنة ٦٣٩هـ ، وولي القضاء بالقدس ومصر ودمشق ، واشتهر بتأسيس المدارس على قواعد متينة واساليب مبتكرة ، توفي بالقاهرة سنة ٧٣٣هـ ٠ من مؤلفاته : المنهل الروي في علوم الحديث النبوي، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ٠

٤ ـ ينبغي الاّ يطيل الدرس تطويلاً يُمل ولا يقصره تقصيراً يُخلّ ، ويراعي في ذلك مصلحة الحاضرين في الفائدة في التطويل ، ولا يبحث في مقام أو يتكلم على فائدة الاّ في موضع ذلك ٠

٥ ـ ينبغي أن يزجر مَنْ تعدّى في بحثه أو ظهر منه سوء ادب وأكثر الصياح بغير فائدة ، أو اساء ادبه على غيره من الحاضرين أو الغائبين أو ترفّع في المجلس على مَنْ هو اولى منه أو نام أو تحدث مع غيره او ضحك او استهزأ بأحد من الحاضرين أو فعل مايُخلّ بأدب الطالب في الحلقة ٠

٦ ـ ينبغي أنْ يتودد لقريب حضر عنده وينبسط عنده له لينشرح صدره ، ولايكثر الالتفات والنظر اليه استغراباً له فانّ ذلك مخجلة ٠

٧ ـ الأولى للمدرس أنْ يمكث قليلاً بعد قيام الجماعة فانّ فيه فوائد واداباً له ولهم منها عدم مزاحمتهم ومنها إنْ كان في نفس أحد بقايا سؤال سأله ٠

٨ ـ ينبغي الاّ ينتصب للتدريس اذا لم يكن أهلاً له ولا يذكر الدرس من علم لايعرفه ٠

٩ ـ أنْ يقصد بتعليمهم وتهذيبهم وجه الله ونشر العلم وإحياء الشرع ودوام ظهور الحق وخمول الباطل ودوام خير الأمة ٠

١٠ـ أنْ يحب مايحب لنفسه ويكره له مايكره لنفسه ٠

١١ـ أن يعتني بمصالح الطالب ويعامله بما يعامل به أعز اولاده مع الحنو والشفقه عليه والاحسان اليه ، ولا يلقى اليه مالم يتأهل له لأن ذلك يبدد ويفرق فهمه ٠

١٢ـ أنْ يحرص على تعليمه وتفهيمه ببذل جهده وتقريب المعنى له من غير اكثار لايتحمله ذهنه ، ويبدأ بتصوير المسائل ثم يوضحها بالأمثله وذكر الدلائل ·

١٣ـ لابأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة يمتحن بها فهمهم وضبطهم بما شرح لهم ويطالبهم في بعض الاوقات باعادة المحفوظات ويمتحن ضبطهم لما قدم لهم من القواعد المهمة والمسائل الغريبة ويختبرهم بمسائل تبنى على أصل قرره أو دليل ذكره ·

١٤ـ أنْ يتفقد الطلبة في حالة غيابهم عند الدرس ويسال عن أحوالهم ، واذا أصبح غيابهم زائداً عن العادة أرسل اليهم أو قصد منزلهم بنفسه · (من كتاب تذكرة السامع) ·

وفي هذا الصدد كتب الكثير من العلماء والفقهاء في مؤلفاتهم حيث حددوا صفات المربّي وأهمية العمل التربوي والرقابة الذاتيه ومراعاة معايير النمو عند الطلاب ، والطرق المختلفة في التدريس والتربية التي تؤدي الى ايقاظ الذكاء وتثير الهمّة · والى العلائق الانسانيه والروحية بين المدرس والطالب والجهد الذي يبذله المعلم في مساعدة التلميذ على التعلم والفهم والتكيف مع نفسه ومحيطه ، ومراعاة للفروق الفردية بين طلابه ، وأثر الثواب والعقاب في العملية التربوية وكذلك الامانة العلميه والتربوية التي ينبغي على المعلم التحلي بها·

اما فيما يتعلق بالمتعلم نفسه فيحدثنا (ابن جماعة) في (تذكرة السامع) عن واجبات الطالب ، منها :

١ ـ أنْ ينصرف الى التحصيل ، فانّ كل ساعة تمضي من عمره لابدل لها ولاعوض عنها ، ويقطع مايقدر عليه من العلائق الشاغله والعوائق المانعه عن تمام الطلب ، ولذلك استحب السلف التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن ·

٢ ـ يستحسن أن يكون أعزباً ماامكنه لئلا يقطعه الانشغال بحقوق الزوجيه وطلب المعيشة عن اكمال الطلب ٠

٣ ـ أن يقلل نومه مالم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه ولايزيد في نومه في اليوم والليلة على ثمان ساعات ولا بأس أن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره اذا كلّ أو ضعف بتنزه أو تفرج في المتنزهات ٠

٤ ـ أنْ يمارس الرياضة البدنية ولاسيما المشي ، فانه ينعش الحرارة وينشط البدن ٠

٥ ـ أنْ يعتني بتحصيل الكتب المحتاج اليها ما أمكنه شراءه ، وإلا فأجارة أو استعارة ٠

وكتب ابن جماعة ايضاً في كتابة «تذكرة السامع والمتكلم فيآداب العالم والمتعلم» بصدد واجبات التلميذ أزاء معلمه العبارات التالية :

«ولاينبغي للطالب أن يكرر سؤال مالا يعلمه ولا استفهام مايفهمه فانه يضيع الوقت وربما ضجر المدرس ، ويجب الاّ يسبق المدرس الى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره ولا يسابقه فيه ولايظهر معرفته به أو ادراكه قبل الشيخ ٠٠٠ وينبغي الاّ يقطع على الشيخ كلامه ٠٠ وأن يكون ذهنه حاضراً في كل وقت بحيث اذا أسَّره بشيء أو سأله عن شيء اشار اليه ولم يحوج الى اعادته ثانياً» ٠ ومعنى هذا العبارات الطريفة والعميقه الفحوى ـ بلغة التربية الحديثه ـ أن يصغي التلميذ للمدرس ولا يضيع الوقت بتوجيه اسئلة هو عارف باجابتها سلفاً ولا يسبق المعلم الى توضيح أو شرح قضية يعرفها ولا يجيب بدل المعلم على أي استفسار يحصل داخل الصف ولا يقاطع المعلم أثناء الدرس وأنْ يركز اهتمامه في الدرس منذ بدايته حتى نهايته ولا يظهر معرفته للمعلم حتى وان

كانت القضية التي يبحثها المعلم مألوفة لديه أو ليست بالجديدة عليه • وهذه صفه من صفات السلف الصالح حبذا لو اقتدينا بها في حياتنا المهنية والعامة ، وتحضرنا ـ في هذه المناسبة ـ ملاحظات طريفه وبالغة الأهميه من الناحية التربوية أشار اليها عطاء بن أبي رباح مفتي أهل مكة ومحدّثهم بقوله : «إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه فأريه من نفسي أني لا أُحسن منه شيئاً وان الشاب ليتحدث بحديث فأسمع له كأنّي لم اسمعه • ولقد سمعته قبل أن يولد» •

ابن حزم[8] :

تناول ابن حزم في رسالة مراتب العلوم موضوعاً تربوياً من أهم الموضوعات التربوية التي كتب عنها في التراث التربوي ، فقد تحدث عن الأهداف التربوية من تدريس المواد التعليمية ، حيث يؤكد في بداية حديثه على وجوب تعليم الطفل الحروف والكلمات منذ السنة الخامسة من عمره مع التعبير الشفهي ، وهذا ماتأخذ به التربية الحديثة من جملة اهداف مرحلة التمهيدي في رياض الأطفال •

أول مايتناوله من المواد التعليمية هي (الكتابة) ، فالخط ينبغي أن يكون واضحاً مفهوماً صحيحاً في إملائه ، وهذا أقل ماهو مطلوب من المعلم في تعليمه طلابه ، فهدف الكتابة ليس التزويق والزخرفة والتعقيد في رسم الحروف والكلمات ، وإنما

---

(٨) ابن حزم : ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الاندلسي ، القرطبي ، فقيه ، اديب ، محدث ، حافظ ، متكلم ، كتب في التاريخ والأنساب والنحو واللغة والشعر والطب والمنطق والفلسفة • ولد في قرطبة عام ٣٨٤هـ/٩٩٤م • توفي عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م • من آثاره : كتاب الفصل بين الملل والأهواء والنحل وجمهرة النسب في معرفة قبائل العرب أو جمهرة الانساب والاحكام لأصول الاحكام وطوق الحمامة في الألفة والألاف ومجموعة رسائل •

الوضوح وسهولة القراءة ، فيقول في هذا : «والحدّ الذي لايقتصر المعلم على أقل منه أن يكون الخط قائم الحروف ، بيّناً صحيح التأليف الذي هو الهجاء ، فان الخط إن لم يكن هكذا لم يُقرأ الاّ بتعب شديد .. الخ» .

أما هدف (القراءة) فهو الفهم واستنتاج المعنى الكامل لما هو مقروء ، ويعبّر عن هذا المعنى بقوله : «وحدّ تعلم القراءة آن يمهر في القراءة لكل كتاب يخرج من يده بلغته التي يخاطب بها صقعه وينفذ فيه» .

واذا ما اتقن اللفظ وضبط الحركات التي تدل على اختلاف المعاني كرفع الفاعل ونصب المفعول وخفض المضاف ، و (النحو) لايقصد لذاته وإنما هو أداة لتقويم اللسان عند التخاطب والقراءة والكتابة ويعتبر اللغة ظاهرة اجتماعية وظيفتها الفهم والافهام ، فيعبر عن ذلك بقوله : «فاذا نفذ في الكتابة والقراءة ... فلينتقل الى علم النحو واللغة معاً ، ومعنى النحو : هو معرفة تنقل هجاء اللفظ وتنقل حركاته الذي يدّل كل ذلك على اختلاف المعاني ... وأنّ جهل هذا العلم عَسُرَ عليه علم يقرأ من العلم . واللغة هي الفاظ يعبّر بها عن المعاني فيقتضي من اللغة المستعمل الكثير التصرف ، وأما الغرض من هذا العلم فهي المخاطبة ...» .

أما (الشعر) فالهدف من تعليمه عند ابن حزم فغرض تربوي اخلاقي حيث انّ القيمه التربوية فيما ينجم عن ايحائها للطفل من مواقف وعادات سلوكية ، ودعى كذلك الى ضرورة التوفيق بين التربية الجمالية والتربية الاخلاقية وعلى رأيه ينبغي تجنب اربعة أنواع منه ، فالشعر الغزلي «يحث على الصبابه ويدعو الى الفتنة ويصرف النفس الى الخلاعة واللذات ويُسهّل الانهماك في الشطارة والعشق ... فأنّ هذا النوع يسهّل الفسوق ويهوّن المعاصي ويروي جمله» .

اما شعر التصعلك فيقول عنه : «أنّ هذه أشعار تثير النفوس وتهيج الطبيعة وتُسهّل على المرء موارد التلف في غير حق وربما ادّته' الى هلاك نفسه في غير حق ··» · وشعر التغرب وصفات المفاوز والبيد والمهامه ، فأنّه يُسهّل التجول والتغرب وتنشيء المرء فيما صعب عليه التخلص منه بلا معنى ·

امّا الهجاء فيقول عنه «فانّ هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه ، فانّه يهوّن على المرء الكون في حالة أهل السفه ·· من المتكسبين بالسفاهة والنذالة والخساسة وتمزيق الاعراض وذكر العورات وانتهاك حرم الآباء والأمهات ···» · أما المدح والرثاء فعنده من المباح المكروه ، بسبب كثرة مافيه من الكذب ·

أمّا الهدف التربوي من (الحساب) عند ابن حزم فهو وسيلة لمعرفة وفهم مابعد الطبيعة من فيزياء وعلم الفلك ، والحساب يعني الرياضيات بشكل عام من اعداد ومساحات وحجوم · ويدعو في ذلك لقراءة كتاب (اقليدس) وكتاب (المجسطي) في علم الهيئة الذي وضعه بطليموس وترجمه حنين بن اسحق ، فيقول في ذلك : «فاذا بلغ المرء من النحو واللغة الى الحدّ الذي ذكره فلينتقل الى علم العدد ، فليحكم الضرب والقسمة والجمع والطرح والتسمية وليأخذ طرفاً من المساحة وليشرف على الا رثما طيقي ـ وهو علم طبيعة العدد ـ وليقرأ كتاب اقليدس قراءة متفهم له ، واقف على اغراضه ، عارف بمعانيه فانه علم رفيع ··· وبمطالعته كتاب المجسطي يعرف الكسوفات وعروض البلاد واطوالها والاوقات وزيادة الليل والنهار والمد والجزر ومنازل الشمس والقمر» ·

امّا علم (النجوم) والمقصود به غير علم الفلك ، فعلى رأي ابن حزم هدف تربوي من دراسته ، وليس له فائدة ومن الاجدر عدم الاشتغال به فعلم التنجيم ليس علماً يستند الى التجربة والبرهان ، وفي هذا المجال لايمكن تكرار التجربة لأن معظم

الحالات لاتتكرر الا في مئات أو الآف السنين ، فهو يقول : «وأما الاشتغال باحكام النجوم فلا معنى له ولايخلو من آن يكون مايحكون قضاياها حقاً أو باطلاً ، فان كان حقاً فمالها فائدة الاّ استعمال الهم والغم والبؤس والنكد ··· وإنْ كان باطلاً فأهل ان لا يشتغل به ··· وبالجملة فليس القضاء بالنجوم على برهان ، وإنما هي تراعي أبداً وبالجملة تجارب وإذ هي كذلك ، فباطل بلا شك ، لأن التجارب لاتكون الاّ بتكرير الحال مراراً كثيرة جداً على صفة واحدة لا تستحيل ابداً ····» ، وهذا القول يؤكده ابن حزم في كتابه (الفصل) قائلاً : (إنّ التجربة لاتصح الاّ بتكرار كثير موثوق بدوامه تضطر النفوس الى الاقرار به ··· الخ) ، ويربط ابن حزم في تدريس (المنطق والطبيعيات) بهدف واحد حيث كل من المعلمين يستند الى المقدمات والقرائن والنتائج وكل نتيجة تعتمد البرهان · ومن هذا يمكن الوقوف على الحقائق وتمييزها عن الأباطيل ، فالنظر في الطبيعيات وعوارض الجو وتركيب العناصر وفي الحيوان والنبات والمعادن وكتب التشريح يستطيع المرء أن يقف على محكم الصنعة وتأثير الصانع واختيار المدبّر وحكمته وقدرته ، فقد جاء في ذلك قوله «فاذا بلغ الانسان حيث ذكرنا ···· أخذ في النظر في حدود المنطق وعلم الاجناس والانواع والاسماء والمفردات والقضايا والمقدمات ليعرف المرء ما البرهان وما الشغب ، وكيف التحفظ مما يظن انه برهان وليس ببرهان ، فبهذا العلم يقف على الحقائق كلها ويميزها عن الأباطيل تمييزاً لا يبقي معه ريب ···» ·

امّا دراسة (التاريخ) فيبدو أنّ ابن حزم اشترط دراسته بعد دراسة العلوم حيث يتمكن المرء من التحليل والاستنتاج عند قراءته أخبار الأمم والممالك الباقيه منها والمندثرة ، وتقلب الدنيا بأهلها

وذهاب الملوك الذين قتلوا النفوس وظلموا الناس واستكثروا من الأموال ... وليقف على حمد المتقين الأخبار ... ومن اهداف دراسة التاريخ في نظر ابن حزم ، تنمية موهبة النقد التي بواسطتها يمكنه البحث عن اسباب الحدث التاريخي والظاهرة الاجتماعية ويدعو الى الموضوعية في فهم التاريخ ، نقتطف من قوله العبارات الآتية : «فاذا أحكم ذلك في خلال ابتدائه بالنظر في العلوم فلا يمكن منه اغفال لمطالعة أخبار الأمم السالفة والخالفة ، وقراءة التواريخ القديمة والحديثة ، ليقف من ذلك على حمد المتقين الأخبار للفضائل فيرغب فيها ، ويسمع ذمهم للرذائل فيكرهها .. ويرى أخبار العلماء والصالحين فيرى الحرص على مثل حالهم ويرغب الحاق اسمه باسمائهم اذا سلك طريقهم وحذا حذوهم وعمل عملهم ... ويطالع آثار المفسدين في الأرض وسوء الآثار عليهم .. فيمقت طريقتهم ويتجنب أن يكون مذكوراً فيهم ... لاينبغي لأحد أن يخلو منه فلا يدري أثراً ولا ماتقوم به الحجة من الأخبار التي يُضطر الى العلم بها حقيقة ، بل يكون بمنزلة من قدّر أن العالم لم يكن الاّ مذ كان هو» .

وفي مكان آخر من (رسالة مراتب العلوم) يضفي ابن حزم على معلم الصف الأول أو معلم القراءة والكتابة صفة الفضيلة والعظمة وله الأجر المضاعف ، لأنه كان سبب حياة نفوسهم . وبالنسبة لمعلم النحو أو الحساب أو الطب فينصح ابن حزم هؤلاء المتخصصين، على الدراسة والمتابعة المستمرة ليكونوا سبباً للخير في تعليم طلابهم ويبتعدوا عن كل غش وتمويه لأن ذلك يفسد الخلق والعلم، كما ينصحه بالقناعة الدائمة .

ابن سحنون(٩) :

شرح محمد بن‌سحنون آراءه التربوية في رسالة عنوانها «آداب المعلمين» وذكر رأيه في واجب المعلم ازاء التلاميذ بصورة خاصة بقوله «ومن حسن رعايته لهم ان يكون بهم رفيقاً . واذا استأهل احدهم الضرب فاعلم ان الضرب من واحدة الى ثلاث : فليستعمل اجتهاده لئلا يزيد في رتبه فوقها . وهذا هو أدبه» اذا فرط فقال قل من الوفاء للمعلم فتباطأ في حفظه أو اكثر من الخطأ في حزبه او في كتابة لوحة من نقص حروفه وسوء تهجيه وقبح شكله وغلطة في نَقْطه»! وهذا يعني ان المعلم يجب عليه دائماً ان يكون اميل الى الرأفة بالتلميذ وان يساعد على إنجاز واجباته على الوجه المطلوب وأن يبتعد عن اللجوء الى العقاب البدني الا ّ عند الضرورة القصوى وألا ّ يتجاوز الضرب ثلاث ضربات بالعصا خفيفة غير مؤذيه عندما يتقاعس التلميذ عن اداء واجباته التعليمية أو لايكثرث بحفظ ما طلب اليه حفظه أو اكثر من خطئه في الجزء المخصص من المصحف الشريف او كان خطه رديئاً .

ويشير ابن سحنون في موضع آخر من رسالته الى ضرورة العناية بالتلميذ الى خارج حدود المدرسة بقوله : «قلت : أفيرسل الصبيان بعضهم في طلب بعض ؟ قال : لا أرى ذلك يجوز له الا ّ أن يأذن له آباؤهم أو أولياء الصبيان في ذلك او تكون المواضع قريبة لا يشتغل الصبي في ذلك . وليتعاهد الصبيان هو بنفسه في وقت انقلاب الصبيان ويخبر أولياءهم أنهم لم يجيئوا» .

---

(٩) ابن سحنون : (٢٠٢ـ٢٥٦هـ) (٨١٧ـ٨٧٠م) محمد بن عبدالسلام سحنون بن سعيد التنوخي القيرواني المالكي (ابو عبدالله) فقيه حافظ ، مناظر ، مؤرخ شارك في انواع العلوم . من تصانيفه الكثيرة : كتاب السير ، كتاب التاريخ . آداب المعلمين .

كما يهتم ابن سحنون في الجانب الاخلاقي والاجتماعي وأثر ذلك في تربية الطفل فيقول : «لايحل للمعلم أن يشتغل عن الصبيان الا أن يكون في وقت لايعرضهم فيه فلا بأس أن يتحدث وهو في ذلك ينظر اليهم ويتفقدهم ··· وليلزم المعلم الاجتهاد وليتفرغ لهم ·

وينبغي له ان يجعل لهم وقتاً يعلمهم فيه الكتب ، ويجعلهم يتحاورون لأن ذلك مما يصلحهم ويخرجهم ويبيح لهم أدب بعضهم بعضا ، ولا يجاوز ثلاثاً ، ولا يجوز له أن يضرب رأس الصبي ولاوجهه ، ولا يجوز له أن يمنعه من طعامه وشرابه اذا أرسل وراءه ··· ولايجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه» ·

وفي مكان آخر من الرسالة يؤكد ابن سحنون على المعلم بضرورة الأهتمام بالتلميذ وايلاءه حقه كما يشير الى تعاون البيت مع المدرسة فيقول في ذلك : «··· وأيجعل ـ اي المعلم ـ الكتب من الضحى الى وقت الانقلاب ولابأس ان يجعلهم يملي بعضهم على بعض لأن ذلك منفعه لهم وليتفقد املاءهم · ولايجوز أن ينقلهم من سورة الى سورة حتى يحفظوها باعرابها وكتابتها إلا أن يسهل له الأباء فان لم يكن لهم آباء وكان لهم اولياء أو وصي ··· فله أن يسهل للمعلم كما الأب ··· الخ» ·

السبكي(١٠) :

يفترض أبو نصر تاج الدين السبكي في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» في الوظيفة التعليمية على انها مهنه أو صنعه ، ولكل وظيفة من الوظائف لها شروطها وعلى القائم بها واجبات ،

---

(١٠) تاج الدين السبكي : عبدالوهاب السبكي ، فقيه اصولي ومؤرخ ، اديب ، ناظم ناثر ، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٧هـ ، وقدم دمشق مع والده وتولى القضاء وخطابة الجامع الأموي ، ودرّس في معظم مدارسها ، وتوفي سنة ٧٧١هـ · من مؤلفاته طبقات الشافعيه الصغرى والوسطى والكبرى : معيد النعم ومبيد النقم ، الفتاوى ، شرح منهاج الوصول الى علم الاصول للبيضاوي ·

والده تقي الدين السبكي) ، وكتب ابن الجوزي في الوعظ لابأس بها ولايخفى مايحذر منه هؤلاء من كتب اصول الديانات ونحوها» .

ومعلم الكتاب ، «ينبغي أنْ يكون صحيح العقيدة فلقد نشأ صبيان كثيرون عقيدتهم فاسدة ، لأن فقيههم كان كذلك ، فأول ماينبغي على الآباء الفحص عن عقيدة معلم ابنائهم قبل البحث عن دينه في الفروع ثم البحث عن دينه في الفروع ، ومن حق معلم الصغار الاّ يعلّمهم شيئاً قبل القرآن ، ثم بعده حديث النبي (ص) ولايتكلم معهم في العقائد بل يدعهم الى ان يتأهلوا حق التأهل ثم يأخذهم بعقيدة أهل السنة والجماعة» .

ويشير السبكي في مكان اخر من كتابه (معيد النعم) عن استعمال اللغة كاداة للفهم والأفهام ومخاطبة كلٍّ بمستواه فيقول في هذا الصدد : «من العلماء طائفة استغرق حبُّ النحو واللغة قلبها ، وملأ فكرها ، فأدّاها الى التقعر في الالفاظ ، وملازمة حوشي اللغة ، بحيث خاطب به مَنْ لايفهمه . ونحن لاننكر أنّ الفصاحة فنٌّ مطلوب ، واستعمال غريب اللغة عزيز حسنٌ ولكن مع أهله ومن يفهمه ، كما حُكي أنّ أبا عمرو بن العلاء قصده طالب ليقرأ عليه فصادفه بكلاّء البصرة (موضع بالبصرة) ، وهو مع العامّة يتكلم بكلامهم ، لايفرق بينه وبينهم . فنقص من عينه . ثم لما نجزَ شُغْلُ أبي عمرو مما هو فيه تبعه الرجل الى أن دخل الجامع ، فأخذ يخاطب الفقهاء بغير ذلك اللسان فعظم في عينه ، وعلم أنه كلّم كلُ طائفة بما يناسبها من الألفاظ . وهذا هو الصواب،فانّ كلَّ أحد يُكلّمُ على قدر فهمه،ومن اجتنب اللّحْنَ، وارتكب العالي من اللغة والغريب منها ، وتكلم بذلك مع كل أحد عن قصد فهو ناقص انعقل ، وربما أتي بعض هذه الطائفه من ملازمة هذا الفن بحيث اختلط بلحمهم ودمهم،فسبق لسانهم اليه، وان كانوا يخاطبون مَنْ لايفهمه» .

ابن العربي[11] :

كتب (ابن العربي) عن اهداف التعليم ومحتواه في الاندلس للفترة التي عاشـها في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حيث كان الاهتمام في بداية الأمر عند تعليم الطفل بقراءة وحفظ القرآن الكريم وضبطه ، ومن ثم بتعليمه فنون اللغـة العربية من نحو ومنطق وشعر وبلاغة وحديث وبعد ذلك يأخذون بتدريبه على الرياضيات التي تشمل المعامـلات والجبر والفرائضـ ٠ وفترة الدراسة من صلاة الصبح حتى صلاة العصر حيث يتعاقب المعلمون على تعليم الطالب ٠ فيقول في هذا الصدد في كتابـه (الرحلة) : «عند ريعان النشأة رتَّـب لي أبي حتى حذقت القـرآن في العام التاسع ، ثم قرن بي ثلاثة من المعلمين احدهم لضبط القرآن باحرفه السبعة التي جمعها الله فيه ، والثاني لعلم العربية والثالث للتدريب في الحسبان ٠٠٠ وقد جمعت من العربية فنوناً وتصرفت فيهـا تمرينا ٠٠٠ وسـمعت جملة من الحديث على المشـيخة ، وقرأت من علم الحسبان : المعاملات والجبر والفرائض عملاً ، ثم كتاب اقليدس وما يليه الى الشكل القطاع ٠٠٠ ونظرت في الاسطرلاب في مسقط النقطة ونحوه ٠٠٠٠ ثم يتعاقب عليّ المعلمون من صلاة الصبح الى صلاة العصر ٠٠٠٠» ٠

---

(١١) ابن العربي : (ابو بكر) محمد بن العربي الاندلسي ، عالم مشارك في الحديث والأصول وعلوم الدين وعلوم القرآن والأدب والنحـو والتاريخ ٠ ولد باشبيليه عام ٤٦٨هـ/١٠٧٦م وولي القضاء بها ٠ سافر الى بغداد واستمع عن علمائهـا وتنقـل مـن بين القاهـرة والاسكندرية والتقى بجماعة من المحدثين ثم عاد الى الاندلس وتوفي ودفن بفاس عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م من تصانيفـه : شـرح الجامـع الصحيح للترمذي ، احكام القرآن : المحصول في الأصول ، الاصناف في مسائل الخلاف غوامض النحويين : قانـون التأويل في تفسـير القرآن ، رحلته ٠



ايُّها الولد : كم من ليالٍ أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت نفسك من النوم ؟ لا أعلم ماكان الباعث فيه ٠ إن كانت نيّتك نيل عرض الدنيا أو جذب حطامها وتحصيل مناصبها والمباهاة على الاقران فويل لك ثم ويل ٠٠ وان كان قصدك فيه احياء شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وتهذيب اخلاقك فطوبى لك ثم طوبى لك ٠٠٠

ايها الولد : العلم بلا عمل جنون٠والعمل بغير علم لايكون٠٠٠ اني رأيت بعض الخلق يظن شرفه وعزه في كثرة الاقوام والعشائر فاغترّ بهم ، وزعم آخرون أنه في كثرة الأموال وكثرة الأولاد فافتخروا بها ٠ وحسب بعضهم العز والشرف في غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم٠واعتقدت طائفة أنهفي اتلاف المال وتبذيره ٠ وتأملتُ قوله تعالى : ان أكرمكم عند الله اتقاكم ٠ فاخترتُ التقوى ٠٠٠

ايها الولد : اعلم انّه ينبغي للمتأدّب المتعلّم شيخ مرشدٌ مربٍّ يخرج أخلاق السوء منه بتربيته ويجعل مكانها خلقاً حسناً٠ ومعنى التربية يشبه عمل الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع» ٠

وهكذا هو الغزالي ينظر الى العلم نظرة عالم حكيم شريف متبصر فالعالم العامل عظيم يشع بعلمه ليضيء عقول الآخرين «فاقتناؤه كاقتناء المال ، له حال طلب واكتساب وحال تحصيل يغني عن السؤال وحال استبصار وهو التفكير في المحصل والتمتع به ، وحال تبصير وهو اشرف الأحوال ، فمن عمل وعلم فهو الذي يدعى عظيماً في ملكوت السموات فانّه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها وكالمسك يطيب غيره وهو طيب» ٠

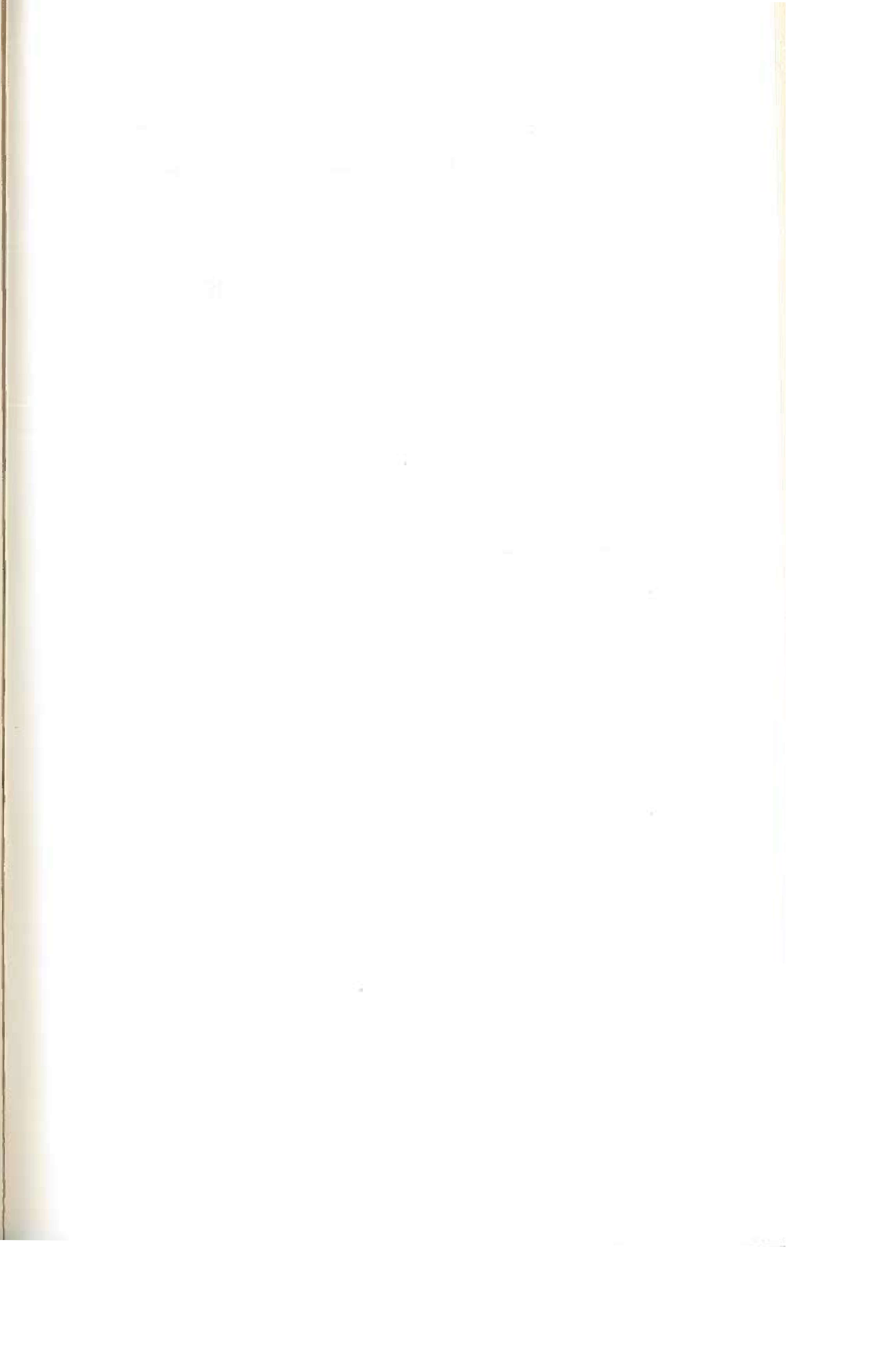
كما ينظر الى المعلم نظرة رفيعة سامية ، فيعتبره قد تقلّد أمراً عظيماً ومسؤولية جسيمة ، ولذلك فعليه واجبات ومهمات كبيرة في تربية وتعليم طلابه ، كما عليه أن يتمسك بالسلوك الحميد ويتحلى بالخلق القويم والاداب العاليه فالغزالي يجمل وظائف المعلم كالآتي :

اولاً : الشفقة على المتعلمين وأنْ يجريهم مجرَى بنيه ، فالأهتمام بمدارك الاطفال لايكفي دون أنْ يعززه باهتمام وجداني ، ومثله في ذلك الرسول (ص) في حديثه الشريف : « انما انا لكم مثل الوالد لولده » .

ثانياً : أنْ يكون تعليمه لطلابه مجرداً من الدوافع المادية وان تبنى العلاقات بين افراد الوحدة التربوية وفق أسس ديمقراطية وعلى ضوء المنفعة المتبادلة . يستفيد بعضها من بعض .

ثالثاً : ينبغي أنْ ينظر المعلم الى التربية على انها بناء تراكمي من المعارف والمعلومات يستدعي تدرجاً منظماً يقوم على مبدأ عدم الانتقال من مرحلة الى اخرى مالم يكن المتعلم مؤهلاً لها ، فيقول في ذلك : «أن لايدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بان يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ..» .

رابعاً : العقاب الذي يوجهه المعلم للمتعلم عن سوء تصرف قام به ينبغي ان يرتبط بشعور الطالب بالذنب الذي ارتكبه. مع اتباع سياسة المرونة والرحمة كي لا نحمل المتعلم على اتخاذ مواقف الجرأة على الهجوم أو الحرص على الاصرار



في الشخصية · والثاني : ان تكون علته من الحماقة بحيث يتصور انه عالم بكل شيء في حين انه على جانب قليل من المعرفة وان ما اشكل عليه هو مشكل على العالم الكبير · والثالث : ان يكون مسترشداً ، وكل مايفهم من كلام العلماء يحمل على قصور فهمه ، وكان سؤاله للاستفادة ، وعدم فهمه ناتج عن بلادته فهو لايدرك الحقائق · اما المرض الذي يقبل العلاج من امراض الجهل فهو اذا كان صاحبه مسترشداً عاقلاً فهماً ، وليس في تكوينه النفسي أو الخلقي نقص أو في سلوكه وانما جهله عن قلة علم وقلة معرفة، فمثل هذا النوع من المتعلمين تكون اجابتهم عند السؤال واجبة ·

ومن معالجات الغزالي التربوية يتناول آداب المتعلم ويضع مواصفات ومعايير لسلوك المتعلم والنهج الصحيح لمسيرته التربوية وكيف يتمكن من تحقيق هدفه في حياته الدراسية وما بعدها ، فوظائف المتعلم كما يسميها الغزالي هي :

اولاً : ان يكون على جانب كبير من الخلق القويم مبتعداً عن كل رذيلة ··· فالعلم عند الغزالي عبادة القلب وصلاة السر ·

ثانياً : أنْ يتفرغ للدراسة ولديه القدرة على مفارقة الأهل والبلد إنْ يتطلب الأمر ذلك ، فالانشغال بالعلم وأمور الدنيا الآخرى في نفس الوقت فذلك يلهيه ويشغله وقد يضيع من يديه المطلبين ·

ثالثاً : أنْ يسلك سلوكاً حميداً مع معلمه ويذعن لنصائحه وتوجيهاته ويكون متواضعاً يأخذ العلم من مشهور أو غير مشهور باصغاء وانتباه ·

رابعاً : على المتعلم المبتديء أنْ يتقن ما يعهد اليه من علوم من قبل استاذه ولا يحاول أنْ يأخذ علوم الدين والدنيا دفعة

واحدة من هذا وذاك ، فانّ ذلـك كمـا يقـول الغزالي : «يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الادراك والاطلاع ، بل ينبغي أن يتقـى اولاً الطريـق الحميدة الواحدة المرضية عند استاذه ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب والشبه» •

خامساً : أنْ يطالـع الطالب على مختلف العلـوم ، حيث ينطلـق الغزالي في هذا الرأي من مبدأ تكامل المعرفة ، وكما هـو الطالب اليوم في مراحل الدراسة العامـة قبل الجامعية ، فالعلوم في نظره متعاونه بعضها مرتبطة ببعض • ويقول في ذلك : «ان لايدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه الا وينظر فيه نظراً يطلـع بـه على مقصده وغايته ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيه» •

سادساً : أنْ يأخذ الطالب التدرج في دراسة اي علم من العلوم ثم التعمق والتخصص فيه فيراعي الترتيب ويبتدي بالأهم • فالتخصص في كل العلوم دفعة واحدة أمر عسير • فكل علم عبارة عن سلسلة من المعارف والمعلومات يعتمد بعضها على البعض في الفهم والاستنتاج •

سابعاً : هناك علاقة وترابط بين بعض العلـوم ، فالتخصص في بعضها يستوجب دراسة علوم اخرى غيرها ، فعلى الطالب كما يشترط الغزالي : «ان لايخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ، فان العلوم مرتبـه ترتيباً ضروريـاً وبعضها طريق الى بعض والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج» •

ثامناً : ان يكون طالب العلم على بيِّنة من الهدف الذي يسـعى الوصول اليه من دراسته والنهج الذي ينبغي ان ينتهجـه للوصول الى غايته •

الصورة تمثل الكمال الا ّ انه لم يجعلها سلبية منفصلة وانما هي موجودة في علاقة صميمية مع الصورة ولايمكن ان تكتسب وجودها الحقيقي الا ّ من خلال المادة وهـذه مثل الصـورة تتمتع بوجـود حقيقي ، وهنا يتجاوز الفارابي ارسطو وبخاصة عندما يقرر انّ كلاً منهما يتمتع بوجود حقيقي •

أمّا في اطار فهمه الاجتماعي التاريخي فقد أكد على أهمية دور العامل الاجتماعي الاقتصادي في تكويـن وتطور المجتمعات الانسانية امّا رأي الفارابي في المعرفة فلا يختلف في جوهره عن رأي (الكندي) في انّ الاشياء المادية اذا ما ادركها العقل تحولت الى معقولات وصار لها وجود في العقـل يخالف وجودهـا المادي وبمعنى ان المعرفة الحسـيّة لاتتم الا ّ بانتقال العقل من التحقق بالقوة الى التحقق بالفعل وان العقل الانساني في تصوره ذو أوجه ثلاثة : العقل في نفس الطفل يكون متحققاً بالقوة وهو انما ينتقل الى التحقق بالفعل بسبب ادراكه صور الاشياء بواسطة الحواس ، والوجه الثاني : ينتقل الى مرحلة ادراك الاشياء المادية بحواسـه وبمعونة العقل الفعال والمرحلة الثالثة : يدرك العقـل الانسـاني المعنى الكلي المعقول الذي هو فوق الحسي والذي يسبق كل ادراك ويحدث الادراك نفسه •

ومن آراء الفارابي الفلسفية في المعرفـة ، انه يفصل بين النظرية والممارسة ويغلب المعرفة العقلية على العمل بحجة ان الذي يحكم على فعل ما بأنه خير أو شر هو العقل ، ولا تحصل المعرفة في الانسان بمجرد مباشرة الحس للمحسوسـات بل بعد تدخـل قوى نفسية متعددة تتعاقب الواحدة بعد الاخرى لتقوم بتنقيتها من الشوائب ومن علائقها الحسـيّة حتى تصل الى مرتبـة التجريـد الخالص •

وفي التربيــة العقلية يعتبر الفارابي أن ّ الفهم أفضل من الحفظ لأن الحفظ فعله يكون في الالفاظ اكثر وذلك في الجزئيات والاشخاص ، والفهم فعله في المعانــي والكليات والقوانين وهذه أمور محدودة متناهية والذي يسعى في هذه الأمور لايخلو من فائدة ويقول في ذلك أيضاً : «ان فعــل الانســان الخاص بــه القياس والتدبير والسياسات والنظر في العواقب فاذا كان معول فيما يحتوي ويعرض له على جزئيات حفظهــا لا يأمن من الغلط والضلال ، اذ الأمور باشخاصها لايشبه بعضها بعضاً بجميــع الجهات ، ولعــل الذي يعرض له لايكون من جنس ماحفظــه ، فاذا كان معوله على الأصول والكليات وعرض له امر من الأمور امكنه ان يرجع بفهمه الى الاصول فيقيس هذا بهذا · فقد تبين ان الفهم أفضل من الحفظ» ·

اما في التربية الاخلاقية فقد كتب الفارابي في كتابه «فصول منوعة» عن العادة ونفوذها حيث اعتبر أن ّ الفضيلة والرذيلة ليست من الصفات التكوينية الملازمة للنفس وانما هي عادات مكتسبة وان الاستعداد الفطري مع انعدام الموانع الخارجيه من شروط اكتساب الصفات الخلقية ، فيقول في ذلك : «لايمكن ان يفطر الانسان من اول أمره بالطبع ذا فضيلة ولا رذيلة، كما لايمكن ان يفطر الانسان بالطبع حائكاً ولاكاتباً ولكن يمكن ان يفطــر بالطبع معداً نحو أفعال فضيلة أو رذيلة بأن تكون افعال تلك أســهل عليه من افعال غيرها · كما يمكن ان يكون بالطبع معداً نحــو افعال الكتابــه او صناعة اخرى بأن تكون أفعالها اسهل عليه من افعال غيرها فيتحرك من اول امره الى فعل ماهو بالطبع أســهل عليه متى لم يحفزه من خارج الى ضده حافز · وذلك الاســتعداد الطبيعي ليس يقال لــه فضيلة ···· ولكن متى كان استعداده طبيعي نحو افعال فضيلة وكررت تلك الافعــال واعتيدت وتمكنت بالعادة هيئة في النفــس وصدر عنها تلك الافعال باعيانها كانت الهيئة المتمكنه عن العادة هي التي يقال لها فضيلة» ·

وللفارابي في تصانيفه الكثيرة اراء ومفاهيم في التربية على مختلف انواعها واغراضها يصعب حصرها ٠

القابسي[١٤] :

يحدثنا (القابسي) عن سلوك المعلم واخلاقه واثر ذلك في تربية الاطفال في كتابه (الرسالة المفصله لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين) متسائلاً : «هل يُستحب للمعلم التشديد على الصبيان او ترى أنْ يرفق بهم ولا يكون عبوساً ٠٠٠» واذا أحسن المعلم القيام وعني بالرعاية ، وضع الأمور مواضعها ، لأنه هو المأخوذ بأدبهم والناظر في زجرهم عما لايصلح لهم ، والقائم باكراههم على مثل منافعهم ، فهو يسوسهم في كل ذلك بما ينفعهم ، كما يعتبر المعلم الدائم العبوس فظاً ممقوتاً ومما يؤدي الى اجتراء الاطفال عليه ، اما اذا استعلمت الشدة في موضعها دون الضرب ، فيكون فيها أدباً لهم في بعض الاحيان ، كما ينبغي له الاّ يتبسط اليهم تبسط الاستئناس ،ولا يضاحك أحداً منهم على حال ٠٠٠الخ٠

ومن آداب المعلم كذلك كما جاء في كتاب (المعيد في أدب المستفيد) الاّ يطيل مجلسه تطويلاً يملّهم أو يمنعهم فهم الدرس وضبطه ، والاّ يدّرس وبه مايزعجه ويذهب استحضاره كمرض أو جوع أو عطش أو شدة فرح أو غمّ أو غضب أو نعاس أو قلق ، وأن يصون مجلسه من اللغط وعن رفع الاصوات ، ويزجر مَنْ تعدّى في بحثه وظهر منه سوء أدب ٠٠٠ أو أكثر الصياح بدون

---

(١٤) القابسي : (٣٢٤هـ ــ ٤٠٣هـ) علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بابن القابسي من اعلام المالكية بالقيروان ، محدّث ، حافظ ، فقيه ، اصولي ، متكلم ، رحل الى مكة وسمع عن البخاري وتوفي بالقيروان ، من مؤلفاته : المهد في اللغة واحكام الديانه، الرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين ، ملخص الموطأ ٠

فائدة أو أساء أدبه على غيره من الحاضرين أو الغائبين • أو ترفع في المجلس على من هو أولى منه أو نام أو تحدث مع غيره ، أو ضحك أو استهزأ بأحد •

وكما على المعلم أن يلازم الانصاف في بحثه وخطابه ، وينبغي أن يتودد لغريب حضر عنده لينشرح صدره ، فانّ للقادم دهشه •• واذا سئل عن شيء لايعرفه ، أو عرض في الدرس مالايعرفه فليقل لا أعرفه أولا اتحققه أو لاادري ، ولايستنكف عن ذلك فمن علم العالم أن يقول فيما لايعلم:لاأعلم ••• (وهذا من الأمانة العلمية)

القلقشندي[١٥] :

تناول شهاب الدين القلقشـندي في مؤلفـه (صبح الاعش) موضوعين تربويين الأول : القاب أصحاب الوظائف التعليمية في القرن الثاني الهجري ، فيصنف هذه الالقاب الى :

الاول ـ الخطيب : وهو الذي يخطب الناس ويذكرّهم في الجمع والأعياد ونحوهما ، وقد كان ذلـك في الزمـن المتقـدم مختصاً بالخلفاء والامراء •

الثاني ـ المقرىء : وهو الـذي يقريء القرآن الكريـم وقد غلب اختصاصه في العرف على مشايخ القراءة من قراء السبعة المجيدين المتصدين لتعليم علم القراءة •

الثالث ـ المحدّث : والمراد به من يتعاطى علم حديث النبي (ص) بطريق الرواية والدراية ، والعلم باسماء الرجال وطرق الاحاديث والمعرفة بالاسانيد ونحو ذلك •

---

(١٥) القلقشندي : شهاب الديـن احمد بن علي القلقشـندي المصري الشافعي ، اديب فقيه ، تولى كتابـة الانشـاء في دولـة المماليك بالقاهرة • وكان قوي الحافظة • اهم آثارة : صبح الاعشى في صناعة الانشا ، نهاية الادب في معرفة قبائـل العرب • ولد عام ٧٥٦هـ وتوفي عام ٨٢١هـ • رحمه الله •

الرابع ـ المدرس : وهو المسؤول عن الدرس وتحضير المادة وترتيب المنهج ويساعده (معيد) ، والذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف، ونحو ذلك • وهو مأخوذ من درست الكتاب دراسة اذ كررته للحفظ •

الخامس ـ المعيد[١٦] : وهو ثاني رتبة بعد المدرس فيما تقدم ، وأصل موضوعه انه اذا القى المدرس الدرس وانصرف ، اعاد للطلبة ماالقاه المدرس اليهم ليفهموه ويحسنوه، وكان الطالب المجد والذي يجد فيه الاستاذ كفاءة يعين معيداً ، وبامكان المعيد ان يرقى الى درجة مدرس •

اما الموضوع الثاني فيتعلق بتقويم العمل التربوي من خلال الامتحانات والحصول على الشهادة (الاجازة) في موضوع ما أو في كتاب معين من قبل احد المشايخ وعن طريق استقرائه لباب أو لمواضع من الكتاب ، فان استظهرها جيداً يمنحه اجازة مكتوبة من قبله وباسلوبه الخاص ، حيث لانص محدد لهذه الاجازات ، ويختلف اسلوب شهادات المشايخ حسب مستوى كل شيخ وملكته في الكتابة، فيقول في هذا الصدد : «وأما الاجازة بعراضة الكتب ، فقد جرت العادة ان بعض الطلبة اذا حفظ كتاباً في الفقه أو اصول الفقه أو النحو ، او غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ العصر ، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبواباً ومواضع ، يستقرئه اياها من أي مكان اتفق ، فان مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب ، وكتب له بذلك كل من عرض عليه، في ورق مربع صغير، يأتي كل" منهم بقدر ماعنده من الملكة في الانشاء ، وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها : فمن عال ومن هابط» •

(١٦) المعيد : ظهرت هذه الوظيفة في القرن الخامس الهجري (ابن جماعة ـ تذكرة السامع) •

المقريزي[١٧] :

وصف المقريزي في كتابه (الخطط) وصفاً دقيقاً وباعجاب بما بُذل من عناية واهتمام بدور الكتب وشؤون التعليم في مصر خلال القرن الرابع الهجري ايام الحاكم بأمر الله ، الخليفة ابو علي المنصور ، عند افتتاح دار الحكمة بالقاهرة وجلوس الفقهاء ، وقد نُقلت اليها الكتب ودخلها الناس الذين يرغبون بالقراءة أو النسخ ، فيقول في هذا الصدد:«وفي يوم السبت العاشر من جمادي الاخره سنة خمس وتسعين وثلثمائه فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها الفقهاء وحملت اليها خزائن القصور المعمورة ودخل الناس اليها ونسخ كل مَنْ التمس نسخ شيء مما فيها ماالتمسه وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها» ٠

وقد خصص لهذه الدور الاساتذة والعلماء في اللغة والنحو والطب والموظفون والفراشون الذين تحتاجهم الدار ٠ وكانت الكتب تشتمل على سائر العلوم والآداب والمخطوطات النادرة ، وهذه الكتب مباحة لجميع الناس وعلى اختلاف طبقاتهم ، وقد وفرت لهم ما يحتاجونه من حبر واقلام وورق ٠ ففي هذا يقول : «وجلس فيها القرّاء والمنجمون واصحاب النحو واللغة والاطباء بعد أنْ فرشت هذه الدار ٠٠٠٠ واقيم قوّام وخدّام وفراشون وغيرهم

---

(١٧) المقريزي : تقي الدين احمد بن علي المقريزي ٠ محدث ومؤرخ ولد بالقاهرة عام ٧٦٩هـ/١٣٦٧م ونشأ بها وتفقه على مذهب ابي حنيفة ، واشتغل في العلوم التي كانت معروفة في عصره وولي حسبة القاهرة ، والف كتباً كثيرة في النثر والنظم منها :
الموعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ويعرف بخطط المقريزي٠ وهو من المراجع المهمة لمعرفة مصر واحوالها ، نبذة العقود في امور النقود وهو تاريخ للنقود العربية ، توفي رحمه الله عام ٨٤٥هـ/١٤٤١م ٠

وسموا بخدمتها ، وحصل في هـذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها اليها من سـائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبه مالم يـر مثله مجتمعاً لأحـد قط ٠ وأباح ذلك كله لسـائر الناس على طبقاتهـم ممن يؤثـر قـراءة الكتب ٠٠٠٠ وحضرها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم مَنْ يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعـل فيها مايحتاج الناس اليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر» ٠

وفي زمن الخليفة العزيـز بالله ابو منصور ، فكان الأهتمـام كبيراً كذلك بالكتب النفيسة كمؤلفات الخليل بن احمد الفراهيدي والطبري وابن دريد ، فكان يبذخ في شرائها ، حيث بلغت الكتب في قصر الخلافة ثمانية عشر الف كتاب من العلوم القديمة،والفين واربعمائة نسخة من القرآن الكريـم المخطوطـة من قبل خطاطين مشهورين ومحلاة بذهب وفضة فيبدوا انّ الاهتمـام لـم يكن بالكتب والعلوم حسب ، بل كان الاهتمام كذلك بالخط والزخرفة٠ وفي هذا يقول المقريزي : «فأمر خزّان دفاتره فاخرجوا من خزانته نيفاً وثلاثين نسـخة من كتاب العين منها نسـخة بخط الخليل بن احمد ، وحمل اليه رجل نسخة من كتاب الطبري اشتراها بمائـة دينار ٠٠٠ واخرج من الخزانه مائة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد ٠٠٠٠ وعدة الخزائن التي برسـم الكتب في سـائر العلوم بالقصر اربعون خزانه ، من جملتهـا ثمانية عشـر الف كتاب من العلوم القديمة ٠٠٠٠ الخ» ٠

ويذكر المقريزي في مكـان آخـر من كتابـه (الخطط) عن اهتمام الحكام بشؤون التعليم في القرن السابع الهجري بمصر ، حيث كان يعين المقرئـون والمؤذنـون والمدرسـون والمعيدون في

المساجد لتدريس القرآن الكريم والحديث والفقه ، كما خُصص معلمون لتعليم الايتام الذين كانت تتولى الدولة ايواءهم واطعامهم واكساءهم · فمما جاء في ذلك قوله : «وقرر في القبة خمسين مقرئاً يتناوبون القرآن ليلاً ونهاراً ورتب بها اماما وجعل بها رئيساً للمؤذنين ··· ورتب بهذه القبة درساً لتفسير القرآن فيه مدرس ومعيدان وثلاثون طالباً ، ودرس حديث نبوي ، وجعل بها خزانة كتب ، ورتب بالمدرسة معلمين يقرئان الايتام ، ورتب للايتام رطلين من الخبز في كل يوم مع كسوة الشتاء والصيف» ·

الماوردي[١٨] :

اوضح الماوردي آراءه التربوية في كتابه (أدب الدنيا والدين) · وهذه فقرات تحمل بعض تلك الآراء : «ربما امتنع الانسان عن طلب العلم لكبر سنه ··· وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل ·· ولان يكون المرء شيخاً متعلماً اولى من أن يكون شيخاً جاهلاً» · انّ هذه الفقرة تحث على مواصلة الدراسة والتتبع بصرف النظر عن كبر السن · وهذا المبدأ التربوي مستمد في الأصل من الحديث النبوي الشريف «اطلب العلم من المهد الى اللحد» ·

لقد أصاب الماوردي في ملاحظاته القيمة الآنفة الذكر ·

وأصاب أيضاً في استشهاده بالحادثة الطريفة التالية التي مفادها ان بعض الحكماء رأى شيخاً يتوق الى طلب العلم لكنه يخجل لكبر سنّه · فقال له الحكيم «أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله ؟ » وهذا يذكرنا بموقف طريف للمأمون ازاء

---

(١٨) الماوردي : (٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ) ابو الحسن علي الماوردي ، فقيه شافعي ، اخذ عن شيوخ البصرة وبغداد وتولى القضاء · من اثارة • كتاب الاحكام السلطانية ؛ ادب الدنيا والدين ونصيحة الملوك

عمه ابراهيم بن المهدي • فقد ذكـر الرواة ان ابراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمـون في الفقـه • فقال لـه المأمون : ياعم ماعندك فيما يقول هؤلاء ؟ فقال ابراهيم : ياأمير المؤمنين شغلونا في الصغر واشتغلنا في الكبر •• فقال المأمون لِمَ لاتتعلمه اليوم ؟فقال ابراهيم : أيحسُن بمثلي طلب العلم مع كبر سنه ؟ فقال المأمون : نعم • والله لان تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل • فقال ابراهيم والى متـى يحسُن بي طلب العلم ؟ قال المأمون ماحَسُنت بك الحياة •

ثم يسترسل الماوردي في عرض قضايا تربوية اخرى بالغـة الأهمية من وجهة النظر التربوية المعاصرة وبخاصة مايتصل منها بضرورة شرح معاني الالفاظ والمصطلحات التي ترد في الدرس لامجرد الاكتفاء بترديد الالفاظ دون استيعاب لمعناها • فقال : «وان لم يفهم التلميذ معاني ماسمع فعلى الكشف عن السبب الذي حال دون ذلك ليعلم العلة في تعذر فهمها فانه بمعرفتـه اسـباب الاشياء وعللها يصل المعلم الى تلافي ما شذّ واصلاح ما فسد • ولا يخلو السبب المانع في ذلك من أن يكون واحداً من ثلاثة •• اما أن يكون لعلة في السامع المستخرج» •

وهذا يعني انّ الطالب عندما لايستوعب فكرة من الافكـار التربوية أو العلميه فان ذلك مرده ـ بنظر الماوردي ـ اما الى كون الكلمة عويصه المعنى بالنسبة له أو لكون المعنى نفسه صعباً على وجه العموم أو لانه يفسرها على غير حقيقتها • فلا بدّ ـ والحالة هذه ـ من قيام المعلم بشرح وافٍ لمعاني الألفاظ والمصطلحات التي يعبرّ بها عن محتوى مادة الدرس للتلاميذ •

وبصدد مزايا المعلم المرغوب فيها بنظر الماوردي يمكننا أن نستشهد بالفقرات التالية : «فأمّا مايجب أن يكون عليه العلماء من الاخلاق التي هي بهم أليق ولهم الزم : فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع عطوف والعجب مُنَفِّر ، وهو بكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح لأن الناس بهم يقتدون · قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا مع العلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه فيتواضع لكم من تعلّمونه» ·

وتطرق الماوردي كذلك في كتاباته الى متطلبات ادراك الأمور والمعارف والعلوم والتعبير عن فهمه لها ، بتوفر العقل المدرك المفكر واللسان المعبر واسلوب التعبير البلاغي ، وأشار الى أهمية التدريب والممارسة في تنمية القدرة على التذكر ·

الفصل الرابع

مواقف اجتماعية ذات مضامين تربوية

تزخر كتب الادب بشكل خاص وكتب التراث العربي الاخرى بنماذج تتعلق بمواقف ذات مضامين تربوية مهمة ، وسوف نعرض في هذا الفصل مجموعة من هذه النماذج . وقد تحاشينا تحليلها أو التعليق عليها لوضوحها . وهي مستمدة في الأصل من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب الأمالي للقالي وكتاب الامالي لليزيدي وامالي الشريف المرتضى وشرح نهج البلاغة لابن الحديد وزهر الاداب للقيرواني وكتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي ونشوار المحاضرة للتنوخي أيضاًوالهوامل والشوامل للتوحيدي ومسكويه والمقدمة لابن خلدون ومعجم الادباء لياقوت الحموي وغيرها من الكتب .

وقد انقسمت تلك النماذج منطقياً الى الاقسام التالية :

اولاً ـ العلاقات الودية التي تتخطى اختلاف الرأي .

ثانياً ـ مواقف تثير الاعجاب .

ثالثاً ـ قول الحق في المواقف المحرجة .

رابعاً ـ « جدلية » أو ديالكتيك الظواهر الاجتماعية .

خامساً ـ الانهماك في الدراسة بشكل منقطع النظير .

اولاً ـ العلاقات الودية التي تتخطى اختلاف الرأي :

لاشك في أن اختلاف الرأي ـ في انقضايا الفكرية الجوهرية ـ كثيراً مايؤدي الى النفرة والقطيعة وربما يورث العداوة والبغضاء بين الصديقين الحميمين • ومن النادر جداً أن يحصل خلاف ذلك • و من هذا النادر الطريف ماروواه الجاحظ في كتاب البيان والبيتين عندما قال :

« لم يَر الناس أعجب من الكميت والطرماح : كان الكميت عدنانياً عصبياً ، وكان الطرماح قحطانياً عصبياً • وكان الكميت شيعياً من الغالية • وكان الطرماح خارجياً من الصفرية • وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة • وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام • وبينهما ـ مع ذلك ـ من الخاصّة والمخالطة مالم يكن بين نفسين قطّ • ثم لم يجر بينهما صَرْم ولانفرة ولا اعراض ولاشيء مما تدعو هذه الخصال اليه • ولم يَر الناس مثلهما الاّ ماذكروا في حال عبدالله الأباضي وهشام بن الحكم الرافضي : فانهما صارا الى المشاركة والى الخلطة والمصاحبة » •

ثانياً ـ مواقف تثير الاعجاب :

ـ ١ ـ

جلس المأمون يوماً وقد حضر الناس • فأمر علي بن صالح بادخال اسماعيل بن موسى : فغلط علي بن صالح وادخل اسماعيل بن جعفر وكان المأمون من أشد الناس بغضاً له • فلمّا رآه اطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال هات حوائجك • فقال ضيعتي بالفتنة قُهرتها وغصِبْتُ عليها • فأمر المأمون بردّها عليه • ثم قال : ودين لحقني في جفوة أمير المؤمنين اياي • فأمر المأمون بقضاء دينه •

ـ ٢ ـ

دخل رجل على المهدي فقال ياأمير المؤمنين أن أمير المؤمنين المنصور شتمني .. لكوني شتمت عدوه بحضرته ... قال المهدي : ومَنْ عدوه الذي غضب لشتمه ؟ قال ابراهيم بن عبدالله بن الحسن. قال المهدي:ان ابراهيم أمس بهرحماً وأوجب عليه حقاً.فانه كان شتمك ـ كما زعمت ـ ففي رحمه ذبّ وعن عرضه دافع.وماأساء من انتصر لابن عمه . قال الرجل ولكنه كان عدواً له . قال المهدي فلم ينتصر للعداوة وانما انتصر للرحم . فسكت الرجل . ثم قال المهدي : لعلك اردت أمراً فلم تجد ذريعة عندك أبلغ من هذه الدعوى » .

ـ ٣ ـ

ذكر أنّ الرشيد أحبّ أنْ ينظر الى شُعيب القلاّل كيف يعمل القلال ، فأدخلوه القصر وأتوه بكل مايحتاج اليه من آلة العمل . وبينما هو يعمل اذا هو بالرشيد قائم على رأسه . فلما رآه نهض قائماً . فقال له الرشيد : دونك ماد ُعيتَ له فانّي لم آتك لتقوم لي . وانما أتيتك لتعمل بين يديّ . فقال شعيب : وأنا لم آتك ليسوء أدبي وانما لازداد بك في كثرة صوابي .

ـ ٤ ـ

من طريف مايروي عن نُصيب الشاعر انه دخل على عبدالملك ابن مروان فعاتبه عبدالملك على قلة زيارته له وإتيانه اليه . فقال نصيب : ياأمير المؤمنين أنا عبد أسود ولست من معاشري الملوك . فدعاه الى النبيذ ، فقال : ياأمير المؤمنين أنا اسود البشرة قبيح المنظر وانما وصلت الى مجلس أمير المؤمنين بعقلي . فان رأى أمير المؤمنين الاّ يدخل عليه مايزيله فعل . فأعفاه ووصله .

وذكر الرواة ايضاً ان رجلاً دخل على عبدالملك بن مروان فقال : هل من خلوة ؟ فأقبل عبدالملك على أصحابه وقال : اذا شئتم ! فقاموا • فقال له عبدالملك : اسمع ، لا تمدحني في وجهي فاني اعرف بنفسي منك • ولاتكذبني فليس لكذوب رأي ولاتسعيَّن بأحدالي • فقال الرجل : أأنصرف ؟ فقال : اذا شئت • فانصرف •

ـ ٥ ـ

وذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن رجلاً وقف على عامر الشعبي فلم يدع قبيحاً الا رماه به • فقال له عامر : إنْ كنتَ كاذباً فغفر الله لك • وإن كنت صادقاً فغفر الله لي •

وهذه الحادثة الطريفة شبيهة بحادثة اخرى ذكرها الجاحظ ايضاً مفادها : انّ السيد المسيح مرّ ببعض الناس فشتموه • ثم مرّ بآخرين فشتموه • فكان كلما قالوا له شراً قال لهم خيراً • نقال له رجل من الحواريين : كلما زادوك شراً زدتهم خيراً ! حتى كأنك تُغريهم في نفسك وتحثهم على شتمك !! قال : «كلّ انسان يعطي ماعنده • وليس في أوعيتكم إلاّ الخير» • وقديماً قيل «وكل إناء بالذي فيه ينضح» •

ـ ٦ ـ

وذكر الرواة أنّ أعرابياً قال لسليمان : واني اكلمك بكلام فاحتمله فانْ وراءه ـ ان فهمته ـ ماتحبه • قال هاته • قال انه قد اكتنفتك رجال اساؤوا الاختيار لانفسهم وابتاعوا دنياك بدينهم • ورضاك بسخط ربهم • وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك • وأنت مسؤول عما اجرموا وليسوا مسؤولين عما اجرمت • فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك • ورحم الله من قال : شرّ الناس مَنْ باع آخرته بدنياه • وشرّ من باع آخرته بدنيا غيره •

ـ ٧ ـ

وعندما قبض على الجاحظ متخفياً في البصـرة بعد مقتـل الوزير محمد بن عبدالملك الزيات (كيلا يصبح ـ بتعبيره ـ ثاني اثنين إذهما في التنتور) ٠

وجيء به الى بغداد مقيداً أمام القاضي احمد بن ابي داؤد ـ خصم ابن الزيات ـ قال له القاضي : « والله ماعلمتك الاّ متناسياً للنعمه كفوراً للصنيعة معدداً للمساوىء ٠٠٠ والايام لاتصلح منك لفساد طبعك ورداءة داخلك وسوء اختيارك » ٠

فقال الجاحظ : «خفف عليك ـ ايدك الله ـ فوالله لان يكون لك الأمر عليّ خيرمن يكون لي عليك،ولان أسيء وتحسن أحسن لك من ان احسن وتسيء ٠ وأنْ تعفو عني ـ في حال قدرتك ـ أجمل من الانتقام مني» ٠ فقال ابن ابي داؤد : «قبحك الله ما علمتك الاكثير تزويق الكلام ٠٠٠ ما تأويل هذه الآية : وكذلك اخذ ربك اذ اخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخـذه أليم شديد » ؟ قال الجـاحظ : تلاوتها تأويلها أعز الله القاضي ٠

ـ ٩ ـ

وذكر الجاحظ في البيان والتبيين عن ابي بكر الهذلي انـه «كنا عند الحسن البصري اذ أقبل وكيع بن ابي الاسود ٠٠٠ فقال للحسن يا أبا سعيد ماتقول في دم البراغيث تصيب الثوب أيصلى فيه ؟ فقال الحسن : ياعجباً ممن ولغ في دماء المسلمين كأنه كلب ثم يسأل عن دم البراغيث» ٠

ـ ١٠ ـ

وذكر أيضاً أنّ أحد الخلفاء خطب في الناس يوماً وذكر انه لم يصبهم طاعون منذ أنْ تولى الخلافة قبل ثلاث سنوات وطلب منهم

ان يشكروا الله على ذلك ، فقام له أعرابي من بين الحاضرين ، وقال : إنّ الله ارأف بعبادة من أن يجمعك والطاعون علينـا ٠

ـ ١١ ـ

عزل الوليد بن عبدالملك عبيدة بن عبدالله عن الأردن وضربه وقال للموكلين به من اتاه متوجعاً واثنى عليه فآتوني به ٠ فأتاه عدي بن الرقاع ـ الشاعر ـ وكان عبيدة محسناً اليه فوقف عليه وانشاء يقول من قصيدة ٠

وما عزلوك مسبوقاً ولكن   الى الغابات سبّاقاً جوادا

فوثب الموكلون به فادخلوا عدي الى الوليد واخبروه بمـا جرى فتغيظ عليه الوليد وقال : أتمدح رجلاً قد فعلنا به ما فعلنا ؟ قال يا أمير المؤمنين انه كان الي محسناً ولي مؤثراً ففي اي وقـت كنت اكافئه بعد هذا اليوم ؟

ـ ١٢ ـ

كان الأفشين مبغضاً لابي دلف القاسم بن عيسى العجلي ٠ فحمل نفسه يوما على قتله واستدعاه باستحثاث وازعاج ٠ وكان ابودلف: صديقاً لقاضي القضاة احمد ابن ابي داؤد ٠ فبعث اليه قائـلاً « ادركني فمن امري كذا وكذا » فوثب ابن ابي داؤد مسرعاً واستحضر من حضره من الشهود ٠ فلما وصل باب الأفشين قال لـه الغلمان فنستأذن لك ؟ قال الآن اعجل من ذلك ونزل ودخل فالفى الأفشين جالساً في موضعه وقد اقيم ابو دلف بين يديه في الصحن ٠ فلما رأى الأفشين قاضي القضاة دخل بلا إذن بهت ٠ فقال له احمد بن ابي داود ! ايها الأمير أنا رسول إمير المؤمنين اليك يأمرك ان لا تحدث في أمر القاسم حدثاً الا بأذنه ٠ ثم التفت الى الشهود فقال

اشهدوا اني قد بلغت رسالة أمير المؤمنين والقاسم حي معافى • ثم خرج فأتى باب المعتصم مسرعاً واستأذن عليه فأذن له • فلما دخل عليه قال ياأمير المؤمنين قد كذبت عليك واحدة أرجو بها الجنة ولك بها الفخر •

قال ماهي ؟ قال كان من الأمر كيت كيت • فضحك المعتصم وقال : أحسنت أحسن الله اليك •

ـ ١٣ ـ

قال الأصمعي بعث الي الرشيد في وقت لم تكن عادته أنْ يستدعيني في مثله • وجاءني الرسول بوجه منكر فأحضرني احضاراً عنيفاً مستعجلاً • فوجلت وجلاً شديداً • وخفت وجزعت • فدخلت فسلمت فلم يرد عليّ ولارفع رأسه اليّ • فقلت : سعيّ لي عنده بباطل يهلكني قبل كشفه وآيست من الحياة • فرفع رأسه وقال : يا اصمعي الاترى الدعي بن الدعي ابن اليهودية مروان بن ابي حفصة يعرّض بقوله لمعن بن زائدة : وان هو الاّ عبد من عبيدنا :

أقمنا باليمامة بعد معن
مقاماً لانريد به زيالا

وقلنا أين نذهب بعد معن
وقد ذهبَ النوال فلا نوالا

وكان الناس كلهم لمعن
الى أنْ زار حفرته عيالا

قال الأصمعي فقلت ياأمير المؤمنين هو أحد عبيدك أنتَ أولى بأدبه أو العفو عنه • فقال علي بمروان • فدخل عليه •

فقال الرشيد : السياط . فأخذ الخدم يضربونه بها . وهو يصيح يأمير المؤمنين ماذنبي ؟ ياأمير المؤمنين اعف عني . واذكر قولي فيك وفي آبائك . فقال الرشيد ياغلام كف عنه . فأنشد قصيدته التي يقول فيها :

هل تطمسون من السماء نجومها
بأكفكم أم تسترون هلالها
أم تدفعون مقالة عن ربّه
جبريل بلّغها النبي فقالها
شهدت مع الانفال أخر آية
تراثهم فأردتم ابطالها
فدعوا الاسود خوادراً في غيلها
لا تُولغَنّ دماءكم اشبالها

فأمر باطلاقه وان يدفع اليه ثلاثون ألف درهم .

ـ ١٤ ـ

قيل لعبد الملك بن مروان ـ وهو يحارب مصعباً قد شرب الخمر . فقال عبدالملك لو علم مصعب انّ الماء ينقص من مروءته مارُوِيَ منه .

ـ ١٥ ـ

ومن المواقف التي تثير الاعجاب موقف ذات النطاقين السيدة اسماء بنت ابي بكر من ولدها عبدالله بن الزبير وهو موقف مشهور ومتداول خلاصته : إنّ عبدالله هذا الذي شهد حرب الجمل مع

أبيه وخالتـه أم المؤمنين والـذي كان لتحريضـه أثر كبيـر في خروجهما الى البصرة بويع له بالخلافة عام ٦٤ أو ٦٥ للهجرة بعد وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية وقتل عبدالله وهو في عامه الثاني او الثالث والسبعين ايام عبدالملك بن مروان وصلب بمكة بعد قتله في اعقاب حصار الحجاج له في مكة زهاء ستة أشهر وسبعة عشر يوماً • ولأمه موقف فريد في بابه ذو جانبين أحدهما قبل قتلـه والآخر وهو مصلوب •

دخل ابن الزبير على امه ــ قبل مقتله بعشرة ايام ــ يعودها أثناء مرض ألمّ بها وقد طعنت في السن وفقدت بصرها فقال لها : انّ في الموت لراحة • فقالت : « لعلك تمنيته لي !!! » وما أحب أن أموت حتى تاتي عليّ احدى حالتيك : اما قتلت فاحتسبك واما ظفرت بعدوك فقرت عيني بك » فمضى لسبيله • ثم دخـل عليها المسجد صبيحة اليوم الذي قتل فيه بعد أن خذله من معـه خذلاناً شديداً ومضوا يخرجون الى الحجاج • وكان ممن فارقه وخرج الى الحجاج ابناه حبيب وحمزة • وكان قبل ذلك قد نكب بمقتل شقيقه مصعب أمير العراقيين الذي دحر جيوش عبدالملك بن مروان مرتين وأعياه أمره • فسار اليه عبدالملك بنفسه حتى اذا كان بمسكن من أرض العراق تقاعس بمصعب أصحابه وقواده وخذلوه • فقال لابنه الحق بمكة فانجُ بنفسك واخبر عمـك عبدالله بما صنع لي أهل العراق ودعني فاني مقتول •

فأبى وقاتل دونه حتى قتل • وعندما دخل مصعب على زوجه سكينة بنت الحسـين وهو محتضن سـيفة قالت انت غير راجـع وصاحت واخرناه عليك يامصعب « فالتفت اليها وقال : إنّ كل هذا في قلبك !!! قالت وماخفي اكثر • قال : لو كنت أعلم هذا لكان لي ولك شأن • ثم خرج فلم يرجع •

اقول : عندما دخل عبدالله على أمه صبيحة اليوم الذي قتل فيه فقال لها : « خذلني الناس حتى ولدي واهلي · والقوم يعطونني ماأردت من الدنيا · فما رأيك » ؟ فقالت « انت يابني اعلم بنفسك ! إن كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض عليه فقد قُتل عليه أصحابك · ولاتمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني امية وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت · اهلكت نفسك واهلكت من قتل معك · وان قلت قد كنت على حق فلما وهن اصحابي وهنت فليس هذا فعل الاحرار وأهل الدين · وكم خلودك في الدنيا ؟ القتل احسن » ·

فدنا ابن الزبير منها فقبل رأسها وقال « هذا والله رأيي الذي قمت به داعياً الى يومي هذا · لكني أحببت أن اعلم رأيك · فزدتيني بصيرة مع بصيرتي · فانظري فانني مقتول من يومي هذا فلا يشتد حزنك · » فقالت : « يكون عزائي فيك حسناً ان فقدتني فلا اخرج من الدنيا حتى انتظر مايصير أمرك · »

أمّا الموقف بعد صلبه فهو كما قال يعلي بن حرملة دخلت بعد قتل ابن الزبير بثلاثة ايام ـ فاذا هو مصلوب ـ فجاءت امه اسماء بنت ابي بكر وكانت امرأة عجوز طويلة مكفوفة البصر فقالت للحجاج : أما آن لهذا الراكب أن ينزل !!! وروى سعيد بن عامر الحزاز عن ابي ملكية : قال كنت الاذن لمن بشر اسماء بنزول ابنها عبدالله عن الخشبة فأمرتني بغسله · ثم قامت فصلّت عليه · وقد كانت تقول : اللهم لاتمتني حتى تقر عيني بدفنه · » فلما دفنته لم تمض عليها جمعة حتى ماتت ·

ـ ١٦ ـ

ذكر الرواة أنّ ابا جعفر المنصور ضمّ رجلاً يقال له فضيل ابن عمران الكوفي الى جعفر ابنه يكتب له ويقوم بأمره فثقل

فضيل على حاشية جعفر فأوغرت صدر المنصور على فضيل فامر بقتله • واتصل خبر قتله بجعفر • فطلب الذي قتل فضيل • فلما جيء به قال ويلك مايقول أمير المؤمنين في قتل رجل مسلم بغير جرم ؟ قال الريّان هو أمير المؤمنين يفعل مايشاء ، فغضب جعفر وقال له :

اكلمك بكلام الخاصة فتكلمني بكلام العامة !! وأمر غلمانه بجره والقائه في دجلة » •

ـ ١٧ ـ

ذكر منارة ـ خادم الخلفاء ـ انه رفع الى هرون الرشيد أنّ رجلاً بدمشق من بقايا بني أمية عظيم الجاه واسع الدنيا كثير المال والاملاك مطاعاً في البلد • فعظم ذلك على الرشيد ، فدعاني فقال لي : دعوتك لأمر أهمني وقد منعني النوم • فانظر كيف تكون ؟ ثم قصّ عليّ خبر الأموي وقال اخرج الساعة • وهذه وقد ضممت اليك مئة غلام • فادخل وابدأ بالرجل • فان سمع وأطاع فقيده وجئني به • والا فتوكل به أنت ومن معك حتى لايهرب وانفذ الكتاب الى أمير دمشق • وهذا محمل تجعله اذا قيدته في شقه • وتجلس أنت في الشق الآخر ولاتكل حفظه الى غيرك • واحفظ مايقول الرجل حرفاً بحرف بجميع الفاظه منذ وقوع طرفك عليه الى أن تأتيني به ، قال منارة : فودعته وخرجت الى أن دخلت دمشق حتى أتيت باب دار الرجل دخلت بغير اذن فرأيت شيخاً قد أقبل يمشي في الصحن فعلمت انه الرجل • فجاء حتى جلس وسلم علي سلاماً خفيفاً وسألني عن أمير المؤمنين ثم قال ما اقدمك يامنارة ؟ فقلت أمرلك من أمير المؤمنين • واخرجت الكتاب فدفعته اليه • ففضّه وقرأه • ثم قال هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالمسير اليه • ولست اقيم بعد نظري فيه لحظة

واحدة • هات اقيادك يامنارة فدعوت بها ومد ساقيه فقيدته وأمرت غلماني بحمله حتى حمل في المحمل • وكنت في الشق الآخر • فابتدأ يحدثني بانبساط • قلت : ألست تعلم أنّ أمير المؤمنين قد همّة امرك حتى ارسل اليك من انتزعك من بني أهلك وولدك ومالك واخرجك عن جميع حالك وحيداً فريداً مقيداً • وأنت مع هذا فارغ القلب • فقال : انّا لله وإنّا اليه راجعون • اخطأت فراستي فيك يامنارة • قدّرتك رجلاً كامل العقل وانك ماحللت من الخلفاء هذا المحل الاّ بعد أن عرفوك بذلك • فاذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم • فالله المستعان •

امّا قولك في أمير المؤمنين وازعاجه لي من داري واخراجه اياي الى بابه على هذه الصورة فأنا على ثقة بالله عزّ وجلّ الذي بيده ناصية أمير المؤمنين • فلا يملك معه لنفسه ولغيره ضراً ولانفعاً الاّ باذن الله ومشيئته • ولا ذنب لي عن أمير المؤمنين أخافه • قال منارة ثم اعرض عني فما سمعت لفظة حتى شارفنا الكوفة • فدخلت على الرشيد وسقت اليه الحديث من أوله فقال : صدق والله ما هذا الاّ رجل محسود على النعمة مكذوب عليه • ولقد آذيناه فبادر بنزع قيوده عنه وائتني به • وأقبل عليه الرشيد ثم قال له : بلغنا عنك فضل همة وأمور احببنا معها ان نراك ونسمع كلامك ونحسن اليك فاذكر اسم حوائجك • قال ياأمير تردني الى بلدي وأهلي وولدي • فقال له الرشيد انصرف محفوظاً الى بلدك • فلما ولى خارجا قال الرشيد : يامنارة احمله من وقتك وسرّ به راجعاً كما اتيت به حتى اذا وصلته الى المجلس الذي اخذته منه فارجع وخلّه •

- ١٨ -

طالب المعتضد أبا العباس بسطام بعجز ضمانه واسط وحبسه في دار ابن طاهر ألزمه سبعين الف دينار يؤديها. فكتب النوشجاني صاحب الخبر في ابي العباس انه كان يُفرِّق في ايام ولايته في كل شهر حنطة ودقيقاً على المستورين والفقراء ومع ذلك فانه يماطل باداء ما عليه . فلما بلغ المعتضد الخبر قال قد سرّني هذا لأن ابن بسطام رجل مشهور بعظم المروءة وكثرة المعروف وقد جملنا بما قد فعل . فعفا عنه ورده الى عمله .

- ١٩ -

ذكر الرواة أنّ رجلين ـ احدهما من ولد جابر بن عبدالله الانصاري والآخر من ثقيف ـ خرجا من المدينة يريدان عبدالله بن عامر أمير العراق لعثمان بن عفّان . فاقبلا يسيران حتى اذا كان بناحية البصرة قال الانصاري للثقفي نُنيخ رواحلنا ونصلي ركعتين نحمد الله فيهما على ما قضى في سفرنا . قال الثقفي نعم . ففعلا . ثم التفت الانصاري الى الثقفي فقال له : يأخا ثقيف مارأيك ؟ قال الثقفي واي موضع رأي هذا ؟ أمضيت سفري وأنضيت بدني وأتعبت راحلتيّ ولا مؤجل دون ابن عامر . فهل لك رأي غير هذا ؟ قال نعم . اني لما صليت فكرت فاستحييتُ من ربي أن يراني طالب رزق من عند غيره . ثم ولّي راجعاً الى المدينة .

- ٢٠ -

كنا ـ مع محمد بن الحسن ـ إذ أقبل الرشيد فقام اليه الناس كلهم الاّ محمد بن الحسن فانه لم يقم . وكان الحسن بن زياد ثقيل القلب ممتلىء الحقد على محمد بن الحسن . فقام ـ ودخل

الناس من أصحاب الخليفة ـ فأمهل الرشيد يسيرا ثم خرج الاذن فقال محمد بن الحسن فجزع أصحابه له • فأدخل في مهل ثم خرج طيب النفس مسروراً • فقال : قال لي مالك لم تقم مع الناس ؟

قلت • كرهت ان اخرج عن الطبقة امتي جعلتني فيها • أنت أهلتني للعلم فكرهت ان اخرج عنه الى طبقة الخدمة التي هي خارجة عنه • فقال : صدقت يامحمد •

ـ ٢١ ـ

من طريف مايروى عن اسحق الموصلي انه قال كنت بين يدي المأمون قائماً فدخل ابن البواب الحاجب برقعة فيها أبيات فقال للمأمون أتأذن ياامير المؤمنين في انشادها ؟ قال المأمون هات فأنشد :

أجزني فاني قد ضمئتُ الى الوعد

متى يُنجَزُ الوعد المؤكد بالعهد

أعيذك من خلْفِ الملوك وقد ترى

تَقَطُعَ أنفاسي عليك من الوجد

رأى الله عبدالله خير عباده

فملكّه والله اعلم بالعبد

الا انما المأمون للناس عصمة

مميزة بين الضلالة والرشد

فقال المأمون : احسنت • وظنها له • فقال ابن البواب بل احسن قائلها ياأمير المؤمنين • قال ومن قائلها ؟ قال عبدك الحسين بن الضحاك •

فقطب المأمون وقال لاحيّا الله من ذكرت ولابياه ولاقربه ، أليس هو القائل وفي رثاء الأمين :

أعينيّ جوادا وابكيا محمدا
ولا تدخرا دمعاً عليه واسعدا

فلا تمّتِ الأشياء بعد محمدٍ
ولازال شملُ الملك فيه مبددا

ولافرح المأمون بالعيش بعده
ولازال في الدنيا طريدا مشردا

هذا بذاك . ولاشيء له عندنا . فقال ابن البواب :

فأين فضل أمير المؤمنين وسعة حلمه وعادته في العفو ؟ فأمر المأمون باحضاره . فلما حضر سلم . فرد عليه المأمون رداً خفيفاً . ثم قال اخبرني هل عرفت يوم قتل اخي هاشمية قتلت او هتكت ؟ قال لا . قال فما معنى قولك :

ومما شجا قلبي وكفكف عبرتي
محارم من آل النبي استُحلَّتِ

ومهتوكة بالخلد عنها سجوفها
كعاب كقرن الشمس حين تبدّتِ

اذا خفرتها روعة من منازع
لها المرط عادت بالخضوع ورنّت

وسرب ظباء من ذوابة هاشم
هتفن بدعوى خير حي وميّتِ

أردُّ يـــدا مني اذا مـــاذكـرتـه
على كبـــد حـــرّى وقلـب مفتـتِ

فـــلا يـأتِ ليل الشامتيـــن بغبطـــة
ولا بـلغـــت آمـالهـا مـن تمنّـتِ

فقال الحسين بن الضحـاك ياأمير المؤمنين : لوعـة غلبتني وروعة فاجأتني ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني : واحسان شكرته فانطقني • فقال المأمون : قد عفـوت عنك وأمـرت لك بادرار ارزاقك عليك واعطائك مافات منها

ـ ٢٢ ـ

قيل أنّ رجلاً دامت عطلته فزور كتباً عن ابي الحسن علي ابن محمد بن الفرات ـ وهو وزير ـ الى زنبور عامل مصر وخرج اليه ولقيه بها • فانكرها ابو زنبور فانفذ الكتب الى ابن الفرات فوصلت الكتب الى ابن الحسن واصحابه بين يديه فعرفهم الصورة ماالرأي في أمر الرجل ؟ فقال بعضهم : نقطع يده لتزويره على الوزير • وقال بعضهم يضرب ويحبس ••• فقال ابن الفرات : ماابعد طباعكم عن الجميل !!! رجل توسل بنا وتحمل المشقة الى مصر وامل بجا هنا الغنى فخفف عنا بأن كتب لنفسه ماقدر ان به صلاحه ورحل ملتمساً للرزق • ثم ضرب بيده الى الدواة وقلب الكتاب المزور ووقع عليه بخطه :

هذا كتابي ولا اعلم لاي سبب انكرته • فأجزل عطية حامله وتابع سيره •

ويدخل في هذا موقف اشترطه الامام علي في الـوالي من الرعية [أو المسـؤول عن تصريـف شـؤون الناس وبين الشعب بالتعبير الحديث] كمـا ورد ذلك في كتاب الأمـام علي بن ابي طالب للاشتر النخعي لما ولاه على مصر واعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن ابي بكر :

« ثم اعلم ـ يامالك ـ اني وجهتك الى بلاد جرت عليها قبلك من عدل وجور ـ وان الناس ينظرون من امورك في مثل ماكنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك . ويقولـون فيك ماكنت تقولـه فيهم . وانما يستدل على الصالحين بمايجرى الله لهم على لسن عبادة فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح . فاملك هواك وشح بنفسك عما يحل اليك .. واشعر الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولاتكونن عليهم سيفاً ضارباً تغتنم اكلهم فانهم صنفان : اما أخ لك في الدين واما نظير لك في الخلق . يفرط منهم الزلل ... فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحـب وترضى ان يعطيك الله من عفوه وصفحه . فانك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك والله فـوق من ولاك ... ولاتندمن على عفو ولاتبجحن بعقوبة ولاتسرعن الى بادرة وجدت عنها مندوحة ...

انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك هوى فيه من رعيتك ... وليكن أحب الأمور اليك اوسطها في الحق واعمها واجمعها لرضا الرعية فان سخط العامة يجحف برضا الخاصة وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة ... وليكن أبعد رعيتك منك واشنأهم عندك اطلبهم لمعايب الناس فان في الناس

عيوباً الوالي أحقُّ من سترها · فلا تكشفن ماغاب عنك منها فأن عليك تطهير ماظهر لـك ··· اطلق عن النـاس عقدة كل حقـد واقطع عنك سبب كل وزر وتغاب عن كل مايصح لك ولاتعجلن الى تصديق ساعٍ » ·

ـ ٢٤ ـ

زعموا أنّ أبا العباس المبرد ورد الدينوري زائراً لعيسى بن ماهان · فأول مادخل عليه وقضى سلامه قال له عيسى : «ايها الشيخ ما الشاة المجثمة التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل لحمها ؟ فقال هي الشاة القليلة اللبن ··· فقال هل من شاهد؟ قال نعم قول الرجز :

لم يبقَ من آل الحُميد نسمه   الاّ عنيز مَجْبَةٌ مجثمه

فاذا الحاجب يستأذن لابي حنيفة الدينوري ، فلما دخل قال عيسى : ايها الشيخ ماالشاة المجثمة التي نهينا عن اكل لحمها ؟ فقال هي التي جثمت على ركبها وذبحت من خلف قفاها . فقال كيف تقول !! وهـذا شـيخ العراق ـ يعنـي أبا العباس المبـرد يقول ··· هي القليلـة اللبن · وانشـده البيتين · فقال ابـو حنيفة أيمان البيعة تلزم ابا حنيفة إنْ كان هذا التفسير سمعه هذا الشيخ أو قرأه وان كان البيتان الا لساعتهما هذه ، فقال المبرد :

صدق الشيخ أبوحنيفة فاني انفت أنْ أرد عليك من العراق ـ وذكري ماقد شاع ـ فأول ماتسألني عنه لا أعرفه ·
فاستحسن منه هذا الاقرار ·

ـ ٢٥ ـ

وذكر محمد بن عبدالله بن حمدون أحد المقربين الى المعتضد الخليفة العباسي : أنّ المعتضد كان في بعض مُتَصَيّداته مجتازاً

بعسكره وانا معه فصاح ناطور في قثاء فأستدعاه وسأله عن سبب صياحه • فقال أخذ بعض الجيش شيئاً • فقال المعتضد اطلبوهم • فجاءوا بثلاثة انفس • فقال هؤلاء الذي اخذوا القثاء ؟ فقال الناطور : نعم فقيدهم في الحال وأمر بحبسهم • فلما كان من الغد انقذهم الى القراح – اي مكان القثاء – وضرب اعناقهم فيه • وسار • فأنكر الناس ذلك وتحدثوا به • ومضت على ذلك مدة طويلة • فجلست احادثه ليلة • فقال لي : ياعبدالله هل يعيب الناس علي شيئاً ؟ عرفني حتى ازيلة • فقلت : كلا ياأمير المؤمنين • فقال : أقسمت عليك بحياتي الاصدقتني • قلت ياأمير المؤمنين وانا آمن !!! •

قال : نعم • قلت : اسراعك الى سفك الدماء ، فقال : والله ما هرقت دماً قط منذ وليت هذا الأمر الا بحقه • قال فأمسكت امساك مَنْ ينكر عليه الكلام • فقال بحياتي لما قلت • فقلت يقولون انك قتلت احمد بن الطيب وكان خادمك ولم تكن له جناية ظاهرة • فقال : ويحك انه دعاني الى الالحاد ... فسكتّ سكوتَ مَنْ يريد الكلام • فقال في وجهك كلام • فقلت : الناس ينقمون عليك أمر الثلاثة الأنفس الذين قتلتهم في قراح القثاء • فقال والله ما كان اولئك المقتولون هم الذين اخذوا القثاء وانما كانوا مجرمين يستحقون القتل حملوا من موضع كذا وكذا • ووافق ذلك أمر اصحاب القثاء فأردت أن اهول على الجيش بان مَنْ عاث منهم في عسكري وافسدوا في هذا القدر كانت هذه عقوبتي له ليكفوا عما فوقه • ولو اردت قتل اصحاب القثاء لقتلتهم في الحال والوقت • وانما حبستهم وامرت باخراج المجرمين من غد مغطين الوجوة ليقال انهم اصحاب القثاء •

فقلت فكيف تعلم العامة ؟ قال اخراجي القوم الذين اخذوا القثاء احياءاً واطلاقي أهم في هذه الساعة . ثم قال : هاتوا القوم . فجاءوا بهم فاستتابهم عن فعل مثل ذلك وأطلقهم .

ـ ٢٦ ـ

وذكر احمد بن عبيد بن ناصح ـ مؤدب المعتز ـ أنّ المتوكل لما اراد أنْ يعقد للمعتز ولاية العهد حَطَطْته عن مرتبته قليلاً وأخرجت غداءه عن وقته . فلما كان وقت الانصراف قلت للخادم احمله فضربته من غير ذنب فشكى ذلك الى المتوكل . فأنا في الطريق منصرفاً اذ لحقني صاحب رسالة فقال : أمير المؤمنين يدعوك . فدخلت على المتوكل وهو جالس على كرسي والغضب يبين في وجهه والفتح بن خاقان بين يديه متكئاً على السيف . فقال ماهذا الذي فعلته ياأبا عبدالله ؟ فقلت أقول ياأمير المؤمنين ؟ فقال : انما سألتك لتقول . قلت : بلغني ماعزم عليه أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ فدعوت ولي عهده وحططت منزلته ليعرف هذا المقدار فلا يعجل بزوال نعمة أحد . وأخرت غداءه ليعرف هذا المقدار من الجوع فاذا اشتكى اليه الجوع عرف ذلك . وضربته من غير ذنب ليعرف مقدار الظلم فلا يعجل على أحد .

ـ ٢٧ ـ

وذكر أبو جعفر احمد بن يوسف بن ابراهيم أنّ احمد بن طولون حبس والده يوسف بن ابراهيم في بعض داره . وكان اعتقال الرجل في داره ينذر بهلاكه . فاجتمع زهاء ثلاثين رجلاً ممن يعرفون يوسف ويترددون عليه . وركبوا الى دار احمد بن طولون واستأذنوا عليه . فأذن لهم . فدخلوا اليه ـ وعنده محمد ابن عبدالله بن عبدالحكم وجماعة من أعلام الناس . فابتداوا

كلامهم بأن قالوا : قد اتفق لنا ـ ايد الله الأمير ـ من حضور هذه الجماعة [واشاروا الى ابن عبدالحكم والحاضرين مجلسه] مارجونا أن يكون ذريعة الى مانسأله ونحن الى الأمير في أن يسألهم عنا ليقف على امرنا ومنازلنا • فسألهم احمد بن طولون عنهم فقالوا : قد عرضت العدالة ـ يعني مهنة القضاء ـ على اكثرهم فامتنع منها • فأمرهم احمد بن طولون بالجلوس • وسألهم تعريفة ماقصدوا له • فقالوا ليس لنا أن نسأل الأمير مخالفة مايراه في يوسف بن ابراهيم لانه أهدى الى الصواب فيه • ونحن نسأله ان يقدمنا الى ما اعتزم عليه فيه • ان آثر قتله ان يقتلنا • وان آثر غير ذلك ان يبلغه فهو في سعة وحل منه • فقال احمد بن طولون : بارك الله عليكم فقد كافأتم احسانه • ثم قال احضروا يوسف ابن ابراهيم • فأحضر • فقال : خذوا بيد صاحبكم وانصرفوا • فخرجوا معه وانصرف الى منزله •

ـ ٢٨ ـ

وحضر الصاحب بن عباد دار الوزير المهلبي عند وروده الى الى بغداد • ثم قصد القاضي ابا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه • فتثاقل القاضي في القيام للصاحب • وتحفز حفزاً اراد به ضعف حركته وقصور نهضته • فأخذ الصاحب بيده وأقامه • وقال نعين القاضي على قضاء حقوق اخوانه • فخجل أبو السائب واعتذر اليه • ويجري هذا المجرى ماذكره القاضي أبو علي التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة حين قال : «حدثني ابو منصور عبدالعزيز محمد بن عثمان المعروف بابن الشراي صاحب أمير المؤمنين المطيع لله • قال : «دخلت في حداثتي يوماً على ابي السائب القاضي • فتثاقل في القيام لي واظهر ضعفاً عنه للسن والعلل المتصله به • قال : فتطاولت فجذبت يده بيدي حتى اقمته القيام التام وقلت له : أعين قاضي القضاه ـ ايده الله ـ

على اكمال البر وتوفية الاخوان حقوقهم · قال وكنت عاتبا عليه في اشياء عاملني بها · وانما جئته للخصومة · فبدأت لأخذ الكلام · فحين رأى الشرّ في وجهي قال : تتفضل لسماع كلمتين ؟ ثم تقول ماشئت ·

فقلت له قل ، فقال : روينا عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى : « فأصفح الصفح الجميل » قال عفو بلا تقريع · فان رأيت أن تفعل ذلك فافعل · فأستحييت من الاستقصاء عليه وانصرفت » ·

ـ ٢٩ ـ

وفي سنة ثمان عشرة ومئتين كتب المأمون من الثغر الى اسحق بن ابراهيم المصعبي والي بغداد في امتحان القضاة والفقهاء والمحدثين بالقرآن · فمن أقر انه مخلوق محدث خلي سبيله · ومن أبى عليه اعلمه به ليأمر فيه برأيه · فأحضر اسحق أبا حسّان الزيادي وبشر بن الوليد الكندي وعلي بن ابي مقاتل والفضل بن غانم والذيال بن الهيثم وسجادة والقواريبي واحمد ابن حنبل وقتيبة وسعدوية الواسطي وعلي بن الجعد وسعد بن ابي اسرائيل وابن الهرش وابن علية الأكبر ويحي بن عبدالرحمن الرياشي وأبا نصر النمار وأبا معمر القيطعي ومحمد بن حاتم ابن ميمون ومحمد بن نوح المضروب وابن الفرحان وجماعة منهم النضر بن شميل وابو علي عاصم وابو العوام البزاز وابن شجاع وعبدالرحمن بن اسحق · فادخلوا على اسحق بن ابراهيم المصعبي فقرأ عليهم كتاب المأمون مرتين حتى فهموه · ثم كلم رجلاً رجلاً منهم فيجيب بما يغالط به أو يصرح · حتى قال لأبي حسان الزيادي ماعندك ؟ وقرأ عليه كتاب المأمون · فقال الزيادي :

القرآن كلام الله · والله خالق كل شيء · وأمير المؤمنين امامنا وبسببه سمعنا عامة العلم · وقد سمع مالم نسمع وعلم ما لم نعلم · وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدي اليه زكوات اموالنا ونجاهد معه ونرى امامته · فان امرنا ائتمرنا وان نهانا انتهينا · فقال له اسحق بن ابراهيم المصعبي : القرآن مخلوق ؟ فأعاد أبو حسّان الزيادي مقالتـه · فقال اسحق بـن ابراهيم المصعبي : هذه مقالة امير المؤمنين فقال الزيادي قد تكون مقالة ولا يأمر الناس بها وان اخبرتني أن أمير المؤمنين امرك ان اقول قلت مامرني فانك الثقة فيما ابلغني عنه· قال المصعبي : مامرني أنْ ابلغك شيئاً· قال الزيادي وماعندي الاالسمع والطاعة فامرني ائتمر · قال المصعبي ما امرني ان آمركم وانما امرني ان امتحنكم وتركه والتفت الى غيره ·

ـ ٣٠ ـ

وحدث الصولي عن عبدالله بن محمد الفارسي عن ثمامة بن أشرس قال لما قدم المأمون من خراسان الى بغداد أمر بان يسمى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه · فذكر له جماعة فهيم الحسين بن الضحّاك · فقرأ اسماءهم حتى بلغ الى الحسين فقال أليس هو الذي يقول في الأمين :

هلاّ بقيت لسـد ناقتنا   أبدا وكان لغيرك التلـف

فلقدخلفت خلائفاسلفوا   ولسوف يعوز بعدك الخلف

لاحاجـة لي فيه · والله لايراني ابدأ الاّ في الطريق · ولم يعاتب المأمون الحسين على ماكان من هجائـه له وتعريضه بـه ·

وحدث جعفر بن منصور قال حدثني أبي قال : حج المهدي فنزل زبالة [وهي قرية بطريق مكة من الكوفة] فدخل الحسين بن مطير الاسدي عليه فقال :

أضحت يمينك من جود مصورّة
لابل يمينك منها صورة الجود
من حسن وجهك تضحي الأرض مشرقة
ومن بنانك يجري الماء في العود

فقال المهدي : كذبت . قال : ولم ذاك ياأمير المؤمنين ؟ قال هل تركت في شعرك موضعاً لاحد بعد قولك في معن بن زائدة :

ألما على معن وقولا لقبره
سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا
فيا قبر معن أنت اول حفرة
من الأرض خطت للمكارم مضجعا
وياقبر معن كيف واريت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت
ولو كان حيّاً ضقت حتى تصدعا
ولما مضى معن مضى الجود وانقضى
واصبح عرنين المكارم اجدعا
وما كان الاّ الجود صورة وجهه
فعاش ربيعاً ثم ولّى وودعا

وكنت لدار الجـود يامعن عامـرا

وقـد اصبحت الدار بعـدك بلقعا

فتى عيش في معروفه بعـد موتـه

كما كان بعد السـيل مجراه مرتعا

تمنّـى أناس شـأوه من ضـلالـم

فأضحوا على الاذقان صرعى وضـُلعـّا

أبن ذكر معـن أن يميـت فعالـه

وإنْ كان قد لاقىً حماما ومصرعا

فقال الحسين بن مطير : يا أمير المؤمنين انما معن حسنة من حسناتك وفعلة من فعلاتك .

ـ ٣٢ ـ

ذكر الرواة أنّ عمر بن بـُكـَير كان يوماً بين يدي المنتصر وهو أمير وفي نفسه شيء على الحسن بن سهيل ولا يأذن له بالدخول عليه . فقال عمر : « أن رأى الأمير ان يسهل أذنه ويجعل ذلك على يدي وحبوة لي وذريعه في مكافـأة الحسـن فعل ... فأدخـل الحسن .. فلما سلم على المنتصر أمره بالجلوس . فجلس . فقال له المنتصر قد صيرت اذنك الى عمر بن بكير ورفعت يد الحاجب عنك فاحضر اذا شئت من غدو أو رواح وارفع حوائجك وتكلم بكل ما في صدرك .

فقال الحسن : ايها الأمير والله ما احضر طلباً للدنيا ولا رغبة فيها ولاحرصا عليها . ولكن عبد يشتاق الى سادته وبلقائهـم يشتد ظهره وينبسط امله . وما احضر لغير ذلك » .

ـ ٣٣ ـ

دخل عمارة بن شمزة يوماً على المهدى فأعظمه • فلما قام قال له رجل من القرشيين كان في المجلس : ياأمير المؤمنين : من هذا الذي أعظمته هذا الاعظام كله ؟ فقال هذا عمارة بن حمزة مولاي • فسمع عمارة كلامه • فرجع اليه وقال : ياأمير المؤمنين جعلتني كبعض حيازلك وفراشيك !! الا قلت : عمارة بن حمزة بن ميمون مولى عبدالله بن عباس ليعرف الناس مكاني !!! •

ـ ٣٤ ـ

قال محمد اليزيدي : « شهدت المأمون وهو جالس على دكة الشماسية وعنده احمد بن الجنيد الاسكافي وجماعة من الخاصة اذ دخل عليه علي بن الهيثم • فلما قرب منه قال له المأمون : ياعدو الله يافاسق • يالص ••• والله لافرقن بين لحمك وعظمك •• فقال احمد بن الجنيد : نعم والله ياأمير المؤمنين••• انه وانه••• ولم يدع شيئاً من المكروه الاّ قاله فيه • فقال المأمون ـ وقد هدأ غضبه ـ ياأحمد ومتى اجترأت علي هذه الجرأة !!! رأيتني وقد غضبت فأردت ان تزيد في غضبي • أما اني سأؤدبك فأؤدب بك غيرك يا علي بن الهيثم قد صفحت عنك » •

ـ ٣٥ ـ

ذكر الفضل بن الربيع أن اباه كان بملازمة عمارة بن حمزة • فاعتل عمارة وكان المهدي سيء الرأي فيه • فقال له ابي يوماً : ياأمير المؤمنين مولاك عمارة عليل وقد أفضى الى بيع فرشه وكسوته • فقال : غفلنا عنه • وما كنت اظن انه بلغ الى هذه الحالة • احمل اليه خمسمائة الف درهم ياربيع • واعلمه ان له عندي بعدها مايحب • فحملها ابي من ساعته وقال لي اذهب بها الى عمارة وقل له ابي يقرئك السلام وقد ذاكر أمير المؤمنين امرك

فاعتذر من غفلته عنك وأمر لك بهذه الدراهم وقال لك عنده ماتحب . فأتيته وابلغته الرسالة فقال : قد كان طال لزومك لنا . وقد كنا نحب ان نكافئك على ذلك ولم نتمكن قبل هذا الوقت . انصرف بها . فهذه لك » .

ـ ٣٦ ـ

قال ابو جعفر محمد بن جرير الطبري : لما دخلت مصر لم يبق أحد من أهل العلم الا لقيني وامتحنني في العلم الذي يتحقق به . فجاءني يوماً رجل فسألني عن شيء من العروض ـ ولم اكن نشطت قبل ذلك ـ فقلت له : علي قول الاّ أتكلم اليوم بشيء من العروض . فاذا كان في غد فصرْ الي . وطلبت ـ من صديق لي ـ العروض للخليل بن احمد . فجاءبه . فنظرت فيه ليلتي . فامسيت غير عروضي واصبحت عروضياً » . وابو جعفر الطبري من الفضل والعلم مالم يجهله أحد . فقد كان عالماً بالفقة والحديث والتفسير والنحو واللغة والتاريخ . وله في جميع ذلك تصانيف مشهورة .

ـ ٣٧ ـ

وذكر عن المبارك بن محمد بن عبدالكريم الملقب بمجد الدين المعروف بابن الاثير صاحب «الكامل في التاريخ» قوله «لقد الزمني الأمير نور الدين بالوزارة غير مرة وانا استعفيه حتى غضب مني فجعلت ابكي فبلغه ذلك فجاءني فقال لي : أَبَلَغَ الأمرُ الى هذا الحد !!! ماعلمت أنّ رجلاً ممن خلق الله يكره ماكرهت . فقلت انا يا مولاي رجل كبير وقد خدمت العلم عمري واشتهر ذلك عني في البلاد بأسرها . واعلم انني لو اجتهدت في اقامة العدل بغاية جهدي ماقدرت اؤدي حقه . ولو ظلم فرد في صنيعة من اخص اعمال السلطان لنسب ظلمه الي ورجعت أنت وغيرك باللائمة عليّ » . فأعفاه .

ـ ٣٨ ـ

كتب الواقدي مرة الى المأمون يشكو ضائقة ركبه بسببها دين وعين مقداره فوقع المأمون على قصته بخطه : « فيك خلتان : سخاء وحياء • فالسخاء اطلق يديك بتبذير ماملكت • والحياء حملك على ان ذكرت لنا بعض دينك ، وقد امرنا لك بضعف ما سألت وان كنا قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك • وان كنا بلغنا بغيتك فزد في بسطة يدك فان خزائن الله مفتوحة » • وقد ذكر الخطيب في تاريخه أنّ «الوافدي قدم بغداد وولي قضاء الجانب الشرقي • وهو ممن طبق الأرض ذكره ••• وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات ••» وكان الرشيد قد ولاّه القضاء بشرقي بغداد • ثم ولاّه المأمون القضاء وكان يكرم جانبه ويبالغ في رعايته •

ـ ٣٩ ـ

قال ثعلب : أقعدني محمد بن عبدالله بن طاهر،مع ابنه طاهر وأفرد لي داراً في داره ، وأقام لنا وظيفة ـ أي الرزق ـ فكنت أقعد معه الى أربع ساعات من النهار ، ثم انصرف اذا اراد الغداء ، فنَمى ذلك الى أبيه ، فكسا البهو والأروقة وأضعف ماكان يُعدّ من الألوان ، فلمّا حضرَ وقتُ الانصراف ، انصرفتُ ، فنَمَى ذلك اليه ، فقال للخادم الموكّل بنا ، قد نُمِيَ اليّ انصراف احمد بن يحيي وقت الطعام ، فظننتُ أنه يستَثِقلُ مايحضر ، ولم يستطب الموضع ، فأمرنا بتضعيفه ، ثم نُمي اليّ أنه انصرف ، فقل له عن نفسك : أبيتُكَ أبرد من بيتنا ؟ أو طعامك أطيب من طعامنا ؟ وتقول له عنّي ! انصرافك الى بيتك وقتَ الغداء هُجنة علينا ، فلمّا عرّفني الخادم ذلك ، أقمتُ ، فكنت على هذه الحال ثلاث عشرة سنة •

نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين وكنت مشغوفاً بأخبار العرب أنْ أسمعها وأجمعها فبينما أنا ادور في بعض أحيائهم اذا انا بمرأة واقفة في فناء خبائها وهي آخذة بيدِ غلام قلمّا رأيت مثله في حُسْنة وجماله له ذُؤابتان كالسّبج المنظوم وهي تعاتبة بلسان رطب وكلام عذْب تحن اليه الاسماع وترتاح له القلوب ،وأكثر ماأسمع منها : أي بنيّ وهو يبتسم في وجهها قد غلبَ عليه الحياء والخجل كأنّه جارية بكر لايرد جوابا فاستحسنت مارأيت واستحليتُ ما سمعتُ فدنوت منه وسلّمتُ فردّ عليّ السلام فوقفت أنظر اليهما فقالت ياحضري ما حاجتك ؟ فقلت الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام فقالت ياحضري إنْ شئت سُقتُ اليك من خبره ماهو أحسنُ من منظره فقلتُ قد شئتُ يرحمك الله ، فقالت : حملتُه والرزق عُسْرُ والعيش نكد حملا خفيفاً حتى مضت له تسعة أشهر وشاء الله عزّ وجل أن اضعه فوضعتة خَلْقاً سوّيا فوربك ماهو الاّ ان صار ثالث أبويه ، حتى أفضل الله عزّ وجل وأعطى وأتي من الرزق بما كفى وأَغنى ثم أرضعتُه حولين كاملين فلما استتم الرضاع نقلته من خرْق المهد الى فراش أبيه فَربيِّ كأنه شبل أسد أقيه بردَ الشتاء وحرّ الهجير حتى اذا مضت له خمس سنين أسلمته الى المؤدب فحفّظه القرآن فتلاه وعلّمه الشعر فَرواه ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرّس وتمرّس ولبس السلاح ومشى بين بويتات الحيّ الخيلاء فأخذ في قرْي الضيف وإطعام الطعام ، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه ..

ـ ٤١ ـ

عن ابي ادريس الخولاني رحمه الله قال:دخلت مسجد دمشق فاذا فتى بـّراق الثنايا ، واذا الناس معه ، فاذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن رأية ، فسألت عنه فقيل · هذا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فلـّما كان الغـد هـّجرت فوجدتـه قـد سبقني بالتهجير ، ووجدته يصلـّي فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جئته من قِبـَلِ وجهـه فسلـّمت عليه ، ثـم قلت : والله إني لأحبك ، فقال : آلله ؟ فقلت : الله ؟ فأخذني بحبوة ردائي فجذبني اليه فقال : أبشر،فاني سمعت رسول الله (ص) يقول : قال الله تعـالى : وَجَبَـت محبتـي للمتحابين فيّ ، والمتجالسين فيّ ، والمتزاورين فيّ ، والمتباذلين فيّ ·

ـ ٤٢ ـ

قال المالكي : خرج عبد الجبار بن خالد من داره يوم الجمعة يريد الجامع بالقيروان للصلاة ، فـاذا شاب جميل الصورة لـه هيئة حسنة ، ولباس رفيع قد اتبع صبيـّة يمشي خلفها ، فلمـا رآه عبدالجبار شقّ عليه ذلك ، فاتكأ برجله على رجله الاخرى وقطع شِسْعَ نعله ثم صاح : « ياشاب ياشاب ! »
فالتفت الفتى اليه ، فمشى عبد الجبار اليه ، فوقف الشاب فقال له عبدالجبار : « قد كبرتْ سنـّي وضعف بصري ، وقد انقطع شْسع نعلي ، فاصلحه لي » فأصلحه له ، فنظر عبد الجبار الصبية وقد أمسكت في مشيتها ، فأخـذ النعـل من الشاب وأدخلـه في رجله ، وتمادي الشاب في أثـر الصبية ، واتكأ عبد الجبار على نعله ثانية فقطعة ، فصاح : « ياشاب ياشاب ! » وكانت لعبدالجبار هيئة عظيمة ، فعاد اليه الشـاب ، فقال له : « أصلـح النعـل ، يامبارك ، ما أصلحته اصلاحاً جيداً ، أظنـك أصلحتـه وأنت مستعجل ؟ » فأخذه الفتى وأصلحه ، فعطف عليه عبدالجبار وقال: ياشاب أنا قطعت النعل في المرة الأولى والثانية ، وانما فعلت

ذلك اشفاقاً عليه ورحمة ، وبكى عبدالجبار وبكى الشاب وقال : «جزاك الله خيراً ، فوالله لاعُدتُ الى ماكان مني أبداً» ثم انّه صَحِبَ عبدالجبار الى الجامع وحَسُنتْ توبته » .

ـ ٤٣ ـ

قال الجاحظ : لدخلت على اسحاق بن سليمان (الكندي) في إمرته ، فرأيت السِّماطين والرجال مثولاً كأن على رؤوسهم الطير ، ورأيت فرشتَه وبزّته ، ثم دخلت عليه معزول ، واذا هو في بيتِ كتبه وحواليه الاسفاط والرقوق ، والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر ، فما رأيته قطّ أفخم ولا أنبل ، ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، لانّه جمع مع المهابة المحبّة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السؤدد الحكمة .

ـ ٤٤ ـ

قال التنوخي نقلاً عن الدباغ : إن بعض طلبة الاندلس وصل الى الفقية أبي محمد القيرواني للقراءة عليه فأكرمه وانزله وأجرى عليه ما يحتاج اليه من نفقة وجعله إمام مسجده فبينما هو ذات يوم خارج من داره الى الصلاة وكانت داره التي انزله فيها مجاورة للمسجد في قبالة حمام أبي محمد اذ نظر الى امرأة خارجة من الحمّام وقد كشفت عن وجهها لما نالها من حرّ الحمّام ولم تظن أنّ أحداً ينظر اليها ، فلّما رأته سترت وجهها وانصرفت فقيّدت بصره واخذت من نفسه مأخذاً عظيماً فتبعها الى أن دخلت دار الفقيه ابي محمد ابن ابي زيد والفقيه ابو محمد ينظر اليه في تلك الحالة ، فلّما رآه ينظر اليه سقط مافي يده وداخله من الحياء والخجل ما لامزيد عليه ورجع الى داره حزيناً فلما تأخر عن الصلاة أتاه المؤذن يؤذنه بها وأعلمه أنّ الشيخ أبا محمد بعث

اليه فأتى فصلّى بالناس ثم أخذ الفقيه معه في المذاكرة والمؤانسة الى أن صلى العشاء الآخرة فقال له أبو محمد انصرف الى دارك حتى أصل اليك فلم يشك انه يقول له في ذلك وظنّ سوءاً وعاد اليه حزنه وكآبته فلمّا وصل الى داره لم يجلس الاّ وابو محمد في أثره فقال له يابُني انما جئتك معتذراً من تقصيري في حقّك اذ لم أقم بجميع ماتحتاج اليه وذلك أني لم اتفقد أنك تحتاج الى النساء فانّك شاب وها أنا شيخ أحتاج الى الزيادة من ذلك فكيف أنت وأما الصبيّة التي رأيتها خارجة من الحمّام فاني ربيتها صغيرة لنفسي وهي لك وما اخرتها لهذا الوقت الاّ لأنهم في الدار من ذلك الحين يصلحون من شأنها فلم يبرحْ حتى وصلت الصبية بجميع ما تحتاج اليه من ثياب وحلي وفرش وتركها في منزله وانصرف . قلت لو وقع اليوم أقل من هذا لتلميذ مع شيخه لما نظر له في وجه ولاصلى وراءه أبداً ولاّ يقدّمه في خطة شرعية ولا يقبل له توبة أبداً .

ـ ٤٥ ـ

قال الربيع بن زياد الحارثي : « كنت عاملاً لابي موسى الاشعري على البحرين . فكتب اليه عمر بن الخطاب بالقدوم اليه مع عماله وأن يستخلفوا جميعاً . فلما قدمنا جميعاً أتيت يرفأ ـ حاجب عمر ـ فقلت : « ايايرفأ : مسترشد وابن سبيل : ايّ الهيئات أحبُ الى أمير المؤمنين أنْ يرى فيها عماله ؟ » فأومأ اليّ بالخشونة » . فاتخذتُ خفين مُطارقين . وليستُ جُبّة صوف . ولثتُ عمامتي على رأسي . ثم دخلنا على عمر . فصّفنا بين يديه . فصعّد بصَره فينا وصوّب . فلم تأخذ عينه أحداً غيري . فدعاني . فقال : مَنْ أنت ؟ فقلت : الربيع بن زياد الحارثي . قال : وما تتولى من أعمالي ؟ قلت :البحرين . قال : كم تُرزَق ؟

قلت : الفاً • قال : كثير • فما تصنع بـه ؟ قلـت : اتقوت منـه شيئاً وأعود بباقيه على أقاربـي ، فما فضـل منه فعلي فقـراء المسلمين • قال : لابأس • ارجـع الى موضعـك • فرجعت الى موضعي في الصف • فصعّد فينا وصوّب • فلم تقع عيناه الاّ عليّ • فقال : كم سِنّك ؟ قلت : خمس واربعون • فقال : الآنْ حيث استحكمت • ثم ربما بالطعام • « واصحابي حديثٌ عهدهم بلين العيش » وكنت قد تجوعت له • فأُتي بخبز يابس وأكسار بعير • فجعل أصحابي يعافون ذلك • وجعلتُ آكل فأجيد •••• وهو يلحظني من بينهم • ثم سبقتْ مني كلمة تمنيتُ لها أنـي سُختُ في الأرض • فقلـت : « ياامير المؤمنـين : إنّ النـاس يحتاجون الى صلاحك • فلو عَـمَـدْتَ الى طعام ألين من هذا !! » فزجرني • ثم قال : « كيف قلت ؟ » فقلت : « ياامير المؤمنين : أنْ تنظر الى قوتك من الطحين فيخبز قبل ارادتك إياه بيوم ، ويُطبخ لك اللحم كذلك • فتُوتى بالخبز ليناً وباللحم غريضاً» • فسكّن من غَـرْبه •

— ٤٦ —

ومرّ عمر يوماً في بعض شوارع المدينة فناداه انسان : « مأراك إلاّ تسـتعمل عمالك وتعهد اليهم العهـود وترى أنّ ذلك قد أجْزأك • كلا : والله انك لمأخوذ بهم إنْ لم تتعهدهم • » قال عمر : ماذاك؟ قال : « عياض بن غَـنْـم • يلبس الليّن ، ويأكل الطيّب ، ويفعل كذا وكذا » • قال عمر : أساعٍ ؟ قال الرجل : « بل مؤدٍ ماعليه » • فقال عمر لمحمد بن مَسْلَمة : « إلحـقْ بعياض بن غَـنْـم فأتني به كما تجده » • فمضى محمد بن مسلمة حتى أتى باب عياض — وهو يؤمئذٍ أمير على حمص — فرأى على

عياض قميصاً رقيقاً ورداء ليّناً • فقال له : «ان امير المؤمنين أمرني ألاّ أفارقك حتى آتيه بك كما أجدك» •فأقدمه الى عمر • وأخبره انّه وجده في عيش ناعم • فأمر عمر بعصاوكساءوقال لعياض : « أذهبْ بهذه الغنم فأحسِنْ رعيها » فقال عياض : « الموت أهون من ذلك » • قال عمر : كذبتَ • ولقد كان ترك ماكنتَ عليه أهون عليك من ذلك» • فساق عياض الغنم بعصاه • والكساء في عنقه • فلما بَعُدَ ردّه عمر • وقال : « أرأيتَ !! إن رددتُك الى عملك أتصنع خيراً !! » قال : « نعم والله ياأمير المؤمنين» • فردّه الى عمله ، فلم يبلغه عنه عندها ماينقمه عليه •

— ٤٧ —

وقيل أنّ عمر لمّا قلّد عمرو بن العاص مصر بلغه أنه قد صار له مال عظيم • فكتب اليه : « أمّا بعدُ •• فقد وجهّتُ اليك محمد بن مَسْلمة • فسلِّمْ اليه شطر مالك • » • فلمّا قَدِمَ محمد صنع له عمرو طعاماً شهّياً • فلم يأكله • وقال : « هذه تقدمة الشرّ • ولو جئتني بطعام الضعيف لأكلت • فنحٍّ طعامك وأَحْضر لي مالك » • فأخذ شطره •

— ٤٨ —

وذكر الرواة أنّ فتى جاء من مصر الى عمر متظلماً • فقال : « سابقت ولد عمرو بن العاص بمصر فسبقته • فجعل يُعنّفني بسوطه »• فكتب عمر الى عمرو بن العاص : « اذا اتاك كتابي هذا فاشهد الموسم انت وابنك » • فلما قَدِم عمرو بن العاص وابنه • دفع عمر السوط الى الفتى المصري وقال : « اضربه — مشيراً الى عمرو بن العاص — » فقال الفتى : « ياأمير المؤمنين إنما ضربني ابنه » فقال عمر : « انّما ضربك بقوة أبيه وسلطانه • فاضربه إنْ شئتَ » •

— ٤٩ —

روي علي بن محمد بن سيف المدائني عن فُضيل بن الجعد قال « آكد الأسباب في تقاعس الناس عن علي بن ابي طالب هو أمر المال : فانه لم يكن يُفضّل شريفاً على مشروف ولا يصانع الرؤساء وامراء القبائل ، ولا يستميل احداً الى نفسه • وقال الشعبي : «دخلت الرّحبّة بالكوفة وانا غلام فاذا انا بعلي بن ابي طالب قائماً على صُبْرتين من ذهب وفضه ومعه مخفقة وهو يطرد الناس بمخفقته ثم يرجع الى المال فيقسمه بين الناس • حتى لم يبق منه شيء • ثم انصرف ولم يحمل الى بيته قليلاً ولا كثيراً» •

— ٥٠ —

وروى محمد بن فُضيل عن هرون بن عنترة قال : «انطلقتُ مع قنبر — غلام علي — فاذا بقنبر يقول لعلي : «ياأمير المؤمنين قد خبأتُ لك خبيئاً » • قال علي : « ويحك !! ماهو ؟ » قال قنبر: « قم معي » فانطلق به الى بيته واذا هو بغرارة مملوءة من جامات ذهب وفضة • فقال : « ياأمير المؤمنين رأيتك لاتترك شيئاً إلاّ قسّمتَه • فادخرتُ لك هذا من بيت المال » • فقال علي : « ويحك ياقنبر !! لقد أحببتَ أن يدخل بيتي نار عظيمة » • ثم سلّ سيفه وضرب ضربات كثيرة • ثم دعا بالناس فقال : « قسّموه بالحصص » •

— ٥١ —

سأل معاوية بن ابي سفيان عقيلاً بن ابي طالب عندما فارق أخاه والتحق به : » كيف تركت علياً والتحقتَ بي ؟ » فقال عقيل : « أقويتُ وأصابتني مخمصة • فسألته ، فلم تندَ

صفاتـه • فجمعـتُ صبيانـي وجئتـه بهـم : والبؤس والضر عاهران عليهم • فقال : «ائتني عَشيّة في المسجد فاتينه يقودني أحدولدي • فأمره بالتنحي • ثم قال : « ألاَ فدونك !! » فأهويتُ ـ وأنا ضرير وحريص قـد غلبني الجشـع • اظنّهـا صُرّة • فوضعتُ يدي على حديدة تلتهب ناراً • فلمّـا قبضتُها نبذتُها وخُرّتُ كما يخور الثور تحت يد جازره • فقـال لي : ثكلتك أمك ياعقيل !! خوارك هذا من حديدة أُوقِدَتْ لها نارُ الدنيا• فكيف بك وبي غداً اذا سُلكنا في سلاسل جهنم !! ليس عندي فوق حقل الذي فرضه الله لك إلاّ ماترى • فانصرفْ الى أهلك»•

ـ ٥٢ ـ

قال كُثَيّر عَزّة : « قدمتُ أنا ونُصَيْب والأحوص على عمر بن عبدالعزيز عند توليه الخلافة • وكلُ واحدمنا يُدلِ بسابقته عند عبدالعزيز وإخائه لعمـر • فكان أول مَنْ لقينـا مسلمة بن عبدالملك • فأحسنَ ضيافتنا واكرم مثوانا ، ثـم قال : « إنّ إمامكم لايعطـي الشـعراء شيئاً » • وجعل مسلمـة يستأذن لنا فلا يؤذَن • فقلت لأصاحبيَ : « جددوا من الشـعر غيرما أعددناه • فليس الرجل بدنيوي » • ثم ان مسلمة استأذن لنا يوم جمعة • بعدما أُذِنَ للعامة من الناس • فدخلنا فسلمنا عليه بالخلافة • فردّ علينا ، فقلتُ له : « ياأمير المؤمنين طال الثواء وقلّت الفائدة • وتحدّثت بجفائك إيانا وفود العرب » • فقال : « ياكُثَيّر !! أما سمعتَ قوله تعالى في كتابه : « إنمـا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله

والله عليم حكيم » . أفمنْ هؤلاء أنت ؟ فقلت :ـ وأنا اضاحك ـ « انا ابن السبيل ومنقطع بـه » قال : « أوَلستَ ضيف ابي سعيد ؟ » قلت : بلى . قال : « ما أحسب من كان ضيف ابي سعيد ابن السبيل ولا منقطعاً به » .

قال كثير : ثم استأذنته في الانشاد . فقال : قلْ ولا تَقلْ الاّ حقاً . فانّ الله سائلك . فانشدت قصيدتي التي جاء فيها :

وَليتَ فلم تَشْتِمْ عليّاً ولم تُخِفْ
بريـاً ولـم تَتبَعْ مقالـةَ مجرِمِ
وقُلتَ فصدقتَ الذي قلتَ بالذي
فعلتَ فأضحي راضياً كلُّ مسلمِ
ومازلتَ سبّاقاً الى كلِّ غايةٍ
صَعدْتَ بها أعلى البناء المُقدّمِ
فلمّا أتاك المُلْكُ عفواً ولم يكن
لطالب دنيـا بعده من تكلّمِ
تركتَ الذي يفنى وإنْ كان مونقاً
وآثرتَ مايبقى برأيِ مُصمّمِ
فأضررتَ بالفاني وشمّرتَ للذي
امامك في يومٍ من الهَولِ مُظلمِ

فقال لي : « ياكُثير إنّ الله سائلك عن كل ماقلت » . ثم تقدّم الأحوص . فاستأذنه . فقال له : « قُلْ ولاتقل الاّ حقّ » . فانّ الله سائلك » . فانشد قصيدته التي جاء فيها :

رأيناكَ لم تَعْدِلْ عن الحقِّ يَمْنَةً
ولا يَسْرَةً فِعْلَ الظَّلُوم المجادِلِ

ولكنْ اخذتَ القصدَ جَهْدَكَ كُلَّه
وتقفو مِثالَ الصالحينَ الأوائلِ

فقلنا ولم نكذب بما قد بدا لنا
ومَنْ ذا يَرُدُّ الحقَّ من قول عاذلِ

فقال له عمر: «ياأحوص إنّ الله سائلك عن كل ماقلت».

ثم تقدّمَ نُصَيب فاستأذنه في الانشاد. فأبي عمر أنْ يأذن له. وغضبَ غضباً شديداً. وأمره باللحاق بدابق.

ثم قال لنا: «ماعندي ماأعطيكم. فانتظروا حتى يخرج عطائي فأُواسيكم فيه.» فانتظرناه. وامر لي وللاحوص لكل واحد منا بمئة وخمسين درهماً.»

ولمّا مثُل جرير بين يدي عمر بن عبدالعزيز واستأذنه في الانشاد قال عمر له: «ياجرير. اتقِ الله. ولاّ تقلْ الاّ حقّاً.» فأنشده قصيدته التي جاء فيها:

كم باليمامة من شعثاءَ ارملةٍ
ومن يتيمٍ ضعيف الصوتِ والنَّظَرِ

مِمَّنْ بِعَدْلِكَ يكفي فَقْدَ والده
كالفرخ في العُشّ لم يَدْرُج ولم يَطِرِ

أأذكر الجُهْدَ والبلوى التي نزلتْ
أمْ قد كفاني مابُلِّغْتَ من خبري

إنّا لنرجو اذا ما الغيثُ أخلفنا
من الخليفة ما نرجو من المطرِ

إنّ الخلافةَ جاءتْه على قَدَرٍ
كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

هذي الأراملُ قد قَضَّيْتَ حاجتَها
فمَنْ لحاجةِ هذا الأرمل الذكر

الخير مادُمتَ حيّاً لايفارقني
بوركتَ ياعُمَرُ الخيرات من عُمَرِ

فقال عمر : « والله ياجرير لاأملك إلاّ ثلاثين ديناراً • فعشرةٌ اخذها عبدالله ابني • وعشرةٌ اخذتها ام عبدالله • » ثم قال عمر لخادمه : « ادفعْ اليه العشرة الثالثة • » فقال جرير : « والله ياأمير المؤمنين : إنّها لأَحَبُّ مالٍ اكتسبته • » •

ـ ٥٣ ـ

قال المستعصمي في (اسرار الحكماء) : حُكي أنّ عطيّة بن عبدالرحمن دخل على مروان بن محمد فلما صار على طرف البساط ، تكلّم فاعجبه ثم قال : أتأذنْ لي ياأمير المؤمنين في تقبيل يدك فقال له مروان : قد عرفنا فضلك ومكانك في قومك ، وأنّ القبلة من المسلمِ ذلّة ومن الكافر خديعة ، ولاحاجة لك أنْ تذلّ أو تخدع ، فأنت الأثير على كل حال عندنا •

ثالثا ـ قول الحق في المواقف الحرجة :

مما لاشك فيه ان هناك رابطة عضوية بين « قول الحق في المواقف الحرجة » وبين « مواقف تثير الاعجاب » وان الحد الفاصل بينهما يتعذر رسمه • ومع ذلك فان « المواقف التي تثير الاعجاب »

قد تحصل في كثير من الاحيان في حالات خاصة لايتعرض صاحبها الى خطر داهم أو مباشر يهدد حياته • وقد راعينا هذه الناحية في عزلهما عن بعضهما • مع العلم « أنّ قول الحق في المواقف الحرجة » ظاهرة اجتماعية نادرة الحدوث ولايقوى عليها الاّ بعض الناس في بعض الأحيان • ولهذا فان هذه الحالة بالغة الأهمية من الناحية التربوية • وهذه طائفة من الأمثلة على قول الحق في المواقف الحرجة •

ـ ١ ـ

بينما المنصور يطوف ليلاً بالبيت سمع قائلاً يقول : اللهم اليك اشكو ظهور البغي والفساد وما يحول بين الحق وأهله من الطمع • فخرج المنصور فجلس ناحية المسجد وارسل الى الرجل يدعوه • وعندما حضر قال المنصور ماالذي سمعتك تقول ؟ فقال ياأمير المؤمنين إنْ أمنتني على نفسي انبأتك بالأمور من اصولها • قال انت آمن على نفسك • فقال ان الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين اصلاح ماظهر من البغي والفساد لانت • ان الله استرعاك المسلمين واموالهم فأغفلت امورهم واهتممت بجمع اموالهم وجعلت بينك وبينهم حجبا وسجنت نفسك فيها عنهم وامرت ان لايدخل عليك الاّ فلان وفلان ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا أحد مماله في هذا المال حق • فما زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم بنفسك وآزرتهم على رعيتك يحبون الاموال ويجمعونها وائتمروا على الاّ يصل اليك من اخبار الناس شيء الاما ارادوا ولما انتشر ذلك عنك وعنهم اعظمهم الناس وهابوهم وكان اول من حالفهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا على ظلم رعيتك • ان للناس اعلاماً يفزعون اليهم في دينهم ويرضون بقولهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك وشاورهم في امرك يسددوك • قال المنصور قد بعثت اليهم فهربوا مني • قال الرجل : نعم خافوا أن تحملهم على

طريقك ولكن افتح بابك وسهّل حجابك وانظر الظلم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات مما حلّ وطاب واقسمه بالحق والعدل على أهله وأنا الضامن عنهم ان يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة ·

ـ ٢ ـ

قال احمد بن ابي داؤد مارأيت رجلاً قط نزل به الموت وعاينه فما ادهشه ولا اذهله ولا أشغله عما كان اراده واحب أن يفعله حتى بلغه الاّ تميم بن جميل الخارجي حين أتي به الى المعتصم · فرأيته بين يديه وقد بسط له النطع والسيف فجعل تميم ينظر اليهما وجعل المعتصم يصعد النظر فيه ويصوبه · فقال له المعتصم ياتميم تكلم ان كان لك حجة وعذر فابده · فتمثل تميم بهذه الأبيات :

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا

يلاحظني من حيثما أتلفتُ

وأكبد ظني أنك اليوم قاتلي

وأي امرىء مما قضى الله يفلت

ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة

وسيف المنايا بين جنبيه مصلت

يعزّ على الأوس بن تغلب موقف

يُهَزُّ عليّ السيف فيه واسكت

وما جزعي من أن اموت وانني

لاعلم انّ الموت شيء موقت

ـ ٣ ـ

وقال الرشيد يوماً للفضيل بن عياض : ما ازهدك ؟؟ قال : أنت ياهرون أزهد مني لاني زهدت في دنيا فانية وزهدت انت في آخره باقية ٠

ـ ٤ ـ

ذكر الحسن بن قحطبة انه استؤذن للقاضي شريك بن عبدالله علىٰ المهدي ـ وأنا حاضر ـ ٠ فقال المهدي علي بالسيف ٠ فأحضر ٠ قال الحسن : فاستقبلتني رعدة لم املكها ٠ ودخل شريك فسلم ٠ فانتضى المهدي السيف ٠ وقال لاسلم الله عليك يافاسق قال شريك : ياأمير المؤمنين ان للفاسق علامات يعرف بها : شرب الخمور وسماع المعازف وارتكاب المحظورات ٠ فعلى اي ذلك وجدتني ؟

قال : قتلني الله ان لم اقتلك ٠ قال شريك : ولِمَ ذلك ياأمير المؤمنين دمي حرام عليك ؟ قال ٠ لأني رأيت في المنام كأني مقبل عليك اكلمك وأنت تكلمني من قفاك ٠ فأرسلت الى المعبر فسألته عنها فقال هذا رجل يطأ بساطك وهو يسير خلافك ٠ فقال شريك : ياأمير المؤمنين إنّ رؤياك ليست رؤيا يوسف بن يعقوب عليهما السلام ٠ وإنّ دماء المسلمين لاتسفك بالاحلام ٠ فنكس المهدي اليه رأسه وأشار اليه بيده أنْ اخرج ٠

ـ ٥ ـ

أتىٰ المهدي برجل قد رمي بالزندقة ٠ فسأله عن ذلك ٠ فقال الرجل : أشهد ان لا اله الاّ الله وحده لاشريك له وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسوله وان الاسلام ديني عليه أحيا وعليه أموت وعليه أبعث ٠ فقال له المهدي : ياعدو الله انما تقول هذا

مدافعةً عن نفسك • هاتم السياط • فأحضرت وأمر بضربه • فضرب ، وهو يقرره • فلما أوجعه انضرب قال له : ياأمير المؤنين: اتق الله • فقد حكمت علي خلاف حكم الله تعالى : وخلاف حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم • فأن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم يقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله • فاذا قالوها عصموا دماءهم واموالهم الا بحقها ، وحسابهم على الله • وأنت قد جلست تطالبني وتضربني حتى أكفر فتقتلني • فخجل المهدي وعلم أنه اخطأ فأمر باطلاقه •

ـ ٦ ـ

قال ابو حازم القاضي كان في حجري أيتام ذكور واناث خلفهم بعض العمال • فرددت امانتهم الى بعض الشهود فصار الي الأمين يوماً وعرفني أن عامل المستغلات ببغداد ــ الذي يتولى مستغلات السلطان ــ قد أدخل يده في املاك الايتام وذكر أن الوزير عبيدالله بن سليمان أمره بذلك عن أمير المؤمنين المعتضد• قال ابو حازم فصرت الى المعتضد في يوم موكب • فلما انقضى الموكب وفدت منه وشرحت له الصورة • فقال لي ابو الايتام عامل خانني في مالي واقتطعه ولي عليه مال جليل من نواحي كان يتولاها من ضيعتي خاصة • ومالي عليه يضعف هذه الاملاك التي خلفها •قال ابو حازم،فقلت ماتدعيه عليه يحتاج الى بيّنة ياأمير المؤمنين وقد صحّ عندي ان هذه الاملاك املاكه يوم مات ولا طريق الى انتزاعها من يد وارثيه الا بيّنة بالمال • هذا حكم الله في البالغين فكيف في الاطفال ؟ فسكت المعتضد ساعة مطرقاً• ثم دعا بدواة ووقع بخطه الى عبيدالله بن سليمان بالافراج عن الضياع •

ـ ٧ ـ

حبس هشام بن عبدالملك الفرزدق في سجن خالد بن عبدالله القسري • فوفد جرير الى خالد ليشفع فيه • فقال له خالد : الا يسرك ان الله اخزى الفرزدق !! فقال : ايها الأمير والله ماأحب أن يخزيه الله الاّ بشعري • وانما قدمت لاشفع فيه • فدعا خالد الفرزدق وقال اني مطلقك بشفاعة جرير • فقال الفرزدق : اسير قسري وطليق كلبي فبأي وجه أفاخر العرب بعدها !! ردني الى السجن •

ـ ٨ ـ

ذكر عن الربيع ـ مولى المنصور ـ انه قال : مارأيت رجلاً أربط جأشاً أو اثبت جناناً من رجل سعي به الى المنصور ان لديه ودائع واموالاً لبني أمية •

فامرني باحضاره • فأحضرته اليه • فقال له المنصور : رفع الينا نبأ الودائع والأموال التي عندك لبني أمية • فأخرج لنا منها واحضرها ولاتكتم منها شيئاً • فقال الرجل : ياأمير المؤمنين أأنت وارث بني أمية ؟ قال لا • قال : فوصي لهم في أموالهم وودائعهم ؟ قال لا • قال فما مسألتك عما في يدي من ذلك قال الربيع:فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال : بني امية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم واريد أن آخذ ماظلموا المسلمين فيه فأجعله في بيت اموالهم فقال الرجل : ياأمير المؤمنين تحتاج الى اقامة بينة عادلة أن ما في يدي لبني أمية هو مما خانوه أو ظلموه فانّ بني أمية كانت لهم اموال غير اموال المسلمين • فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال : ياربيع ماأرى الشيخ الاّ قد صدق • ومايجب عليه

شيء . وما يسعنا الا أن نعفو عما قيل عنه . ثم قال للرجل هل لك حاجة ؟ قال نعم ، حاجتي ـ ياامير المؤمنين ـ ان تجمع بيني وبين مَنْ سعى في اليك . فوالله الذي لااله الا هو مافي يدي لبني أمية مال ولا وديعة . ولكني لما مثلت بين يديك وسألتني عنه قابلت بين هذا القول ـ الذي ذكرته الآن ـ وبين ذلك القول الذي ذكرته اولا فرأيت ذلك أقرب الى الخلاص والنجاة . فقال المنصور للربيع ان يجمع بين الرجل وبين الرجل وبين من سعى به . فجمع بينهما . فلما رآه قال هذا غلامي اختلس ثلاثة الاف دينار من مالي وأبق مني وخاف من طلبي له فسعى بي عند أمير المؤمنين فشدد المنصور على الغلام وخوفه فاعترف بذنبه .

ـ ٩ ـ

ذكر الرواة أن المنصور بعث الى شيخ من بطانة هشام بن عبدالملك الخليفة الأموي . فلما حضر سأله المنصور عن سياسة هشام وعلاقاته بالناس . فأقبل الشيخ يقول : فعل هشام رحمه الله كذا وكذا . وقال يوم كذا رحمه الله ... فأمتعض المنصور من ذلك ونهره وقال له . قم لعنك الله . أتطأ بساطي وتترحم على عدوي !! فقال الشيخ ياأمير المؤمنين إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لاينزعها الا غاسلي . فتراجع المنصور وتلاشت حدته وقال ارجع الى حديثك فأني اشهد انك غرس شريف وابن حرة .

ـ ١٠ ـ

عن الجاحظ ـ في كتاب الحيوان ـ قال أبو عمرو بن العلاء : قيل لنا يوماً : ان في دار فلان ناساً قد اجتمعوا على سوءة ، وهم جلوس على خميرة لهم ، وعندهم طنبور . فتسورنا عليهم في جماعة من رجال الحي ، فاذا فتى جالس في وسط الدار ،

وأصحابه حونه . واذا هم بيض اللحى ، واذا هو يقرأ عليهم دفتراً فيه شعر . فقال الذي سعى بهم : السوءة في ذلك البيت، وان دخلتموه عثرتم عليها ! فقلت : والله لاأكشف فتى أصحابه شيوخ ، وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكرياء.

رابعاً ـ « جدلية » أو ديالكتيك الظواهر الاجتماعية :

نقصد بجدلية الظواهر الاجتماعية ـ أو ديالكتيكيتها ـ انها تحمل الشيء ونقيضه وان ذلك يتوقف على الجانب الذي تركز اهتمامنا فيه منها . وقديماً قال المتنبي :

بذا قضت الأيام مابين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد

وهذه نماذج منها :

ـ ١ ـ

ذكر الرواة أنّ عبدالله بن عامر أمير البصرة لعثمان بن عفان مرّ على نهر ام عبدالله الذي يشق البصرة ومعه غيلان بن خرشة الضبي أحد وجوه القوم . فقال عبدالله . ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر !! قال غيلان : أجل أيها الأمير . يعلّم القوم صبيانهم السباحة فيه . ويكون لسقياهم وسيل مياههم . وتأتيهم فيه ميرتهم. ثم مرّ غيلان يساير زياداً ـ أمير البصرة بعد عبدالله بن عامر وكان يجفوه ـ فقال زياداً : ، ماضر هذا النهر بأهل هذا المصر !! قال غيلان : أجل ايها الأمير . تنز منه دورهم ويغرق فيه صبيانهم ويكثر من أجله بعوضهم .

تلك ظاهرة اجتماعية مألوفة كثيرة الوقوع يجتمع فيها الشيء ونقيضه ويستوي فيها المدح والقدح . وهي ـ بنظرنا ـ ظاهرة اجتماعية طبيعية وموضوعية لاتنطوي دائماً وحتماً أو

بالضرورة على التذبذب والموازبة كما قديبدو في الظاهر لأول وهلة . ونهر أم عبدالله المار ذكره يحمل الصفتين المتناقضتين . وغيلان لم يناقض نفسه أو يداهن ابن زياد . وقد أبدى الجاحظ ملاحظات طريفة وعميقة في هذا الشأن عندما قال :

« إنّ العربي يعاف الشيء ويهجو غيره به . فاذا ابتلى به فخر به . ولكن لايفخر لنفسه من جهة ماهجا غيره به . فافهم هذا . فانّ الناس يغلطون على العرب ويزعمون انهم يمدحون الشيء ويهجونه . وهذا باطل . ليس شيء الاّ وله وجهان . فاذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين .

ـ ٢ ـ

انّ ملاحظات الجاحظ المار ذكرها تذكرنا بحادثة نادرة ذكرها صاحب زهر الاداب « وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم . فقال الزبرقان : يارسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب منهم . آخذ بحقهم وامنعهم من الظلم . وهذا ـ يعني عمروا ـ يعلم . فقال عمرو : أجل يارسول الله : انّه مانع لحوزته مطاع في عشيرته شديد العارضه عليهم . فقال الزبرقان : أما والله قد كتم اكثر مما قال . وانه حسدني شرفي . فقال عمرو : أما لئن قال ماقال فوالله ماعلمته الاّ ضيق العطى زمر المروءة أحمق الأدب لئيم الحال حديث الغنى . فرأى الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله فقال : يارسول الله : رضيت فقلت أحسن ماعلمت . وغضب فقلت اقبح ماعلمت وماكذبت في الأولى ولقد صدقت في الثانية .

ذكر الحريري في المقامة الدينارية أنّ الحارث بن همام قال : «ضمّني واخواناً نادٍ لم يخب فيه مناد ولاكبا قَدْح زناد ولا ذكت نار عباد . فبينما نحن نتجاذب أطراف الأناشيد ونتوارد طرف الأسانيد اذ وقف بنا شخص عليه سَمَل" وفي مشيه قَزَل . فقال ياخاير الذخائر وبشائر العشائر عموا صباحاً وانعموا اصطباحاً . وانظروا الى مَنْ كان ذانَدي وندى وجدة وجدا... فما زال بهقطوب الخطوب وحروب الكروب...

حتى صفرت الراحة وفرغت الساحة .. فهل من حرّ آسٍ أو سمح مؤاسٍ .. قال الحارث بن همام .. فأبرزت ديناراً وقلت له اختباراً ان مدحته نظماً فهو لك حتماً . فانبرى ينشد في الحال :

أكرِمْ به أصفر راقت صُفْرتهْ
جوّاب آفاق ترامت سفرته
مأثورة سمعته وشهرته
قد أودعت سر الغنى أسرته
وقارنت نُجْحَ المساعي خطرته
وحُبِّبتْ الى الأنام غرته
وحبذا مغناته ونصرته
كم آمر به استتبت امرته
ومشرف لولاه دامت حسرته
وجيش هم هزمته كرته
لولا التقى لقلت جلّت قدرته

ثم بسط يده بعدما أنشده قال أنجز أنجز حرٌّ ما وعد وسح حال ان رعد • فنبذت الدينار اليه وقلت خذه غير مأسوف عليه •• فجردت ديناراً آخر وقلت له هل لك في ان تذمه ثم تضمه • فأنشد مرتجلاً وشدا عجلا :

تبـا لـه مـن خـادع ممـاذق
أصفـر ذي وجـهين كالمنـافـق
يبـدو بوصفـين لعـين الرامـق
زينـة معشـوق ولـون عاشـق
وحبّـه عنـد ذوي الحقـائق
يدعـو الى ارتكاب سـخط الخالق
لـولاه لـم تقطـع يمـين سـارق
ولا بـدتْ مظلمـة مـن فاسـق
ولا اشـمأز باخـل من طـارق
ولاشـكا المطـول مطـل العائق

ــ ٤

ذكر الرواة أنّ خالد بن صفوان ــ مع فضله وجلالتـه ــ كان أحد بخلاء العـربُ الأربعـة • وروي انه اكل يومـاً خبـزاً وجبناً فرآه اعرابي فسلم عليه • فقال خالـد : « هلم الى الخبـز والجبن فانه حمض العرب • وهو يسبغ اللقمة ويفتق الشـهوة وتطيب عليه الشربة » • فانحط الاعرابي • فلم يبق خالد شيئاً منهما . فقال ياجارية زيدينا خبزاً وجبنا • فقالت مابقي عندنا منه شيء • فقال خالد : الحمد لله الذي صرف عنا معرته وكفانا

مئونته . والله انه ماعلمته ليقدح في السن ويخشن الحلق ويربو في المعدة ويعسر في المخرج . » .

ـ ٥ ـ

وفي ابيات المتنبي التي يصف بها كافورا الاخشيدي اوصافاً جسمية ثابتة كلون البشرة مثلا اتخذها المتنبي تارة للمدح واخرى للهجاء ونثبت هنا بعض ابيات المدح ونتحاشى ذكر أبيات الهجاء لتنافرها مع مانحن بصدده وهو المضامين التربوية الصائبة ـ وهي موجودة في الديوان :ـ

تفضح الشمس كلما ذرّت الشمس بشمس منيرة سوداء
انماالجلدملبس وابيضاض النفس خيرمن ابيضاض القباء
من لبيض الملوك ان تبدل اللون بلون الاستاذ والسحناء

خامساً ـ الانصراف التام للعلم أو الانهماك المنقطع النظير فيه :

ـ ١ ـ

ضرب عدد كبير من العلماء الأولين مثلاً في هذا المجال وانصرفوا انصرافاً تاماً للعلم وانهمكوا فيه . فكانوا يطوفون البلدان من أجل خبر أو حديث أو علم معين ، وكانوا يسهرون الليالي الطوال وعلى وسائل الاضاءة البدائية وهم يقرأون أو يكتبون ، فتركوا لنا التصانيف الكثيرة في مختلف العلوم . ومع الانهماك المنقطع النظير من أجل العلم كانوا يعملون نهاراً في طلب الرزق لهم ولعيالهم . وهانحن نورد عدداً من الأمثلة في هذا المجال .

عن الامام علي بن ابي طالب (رض) من كتاب « نهج البلاغة » ... « ياكُميل بن زياد ، إن هذه القلوب أوعيةٌ ، فخيرها أوعاها . فاحفظ عني ماأقول لك .

الناس ثلاثة : فعالم ربّاني ، ومتعلّم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق .

ياكميل بن زياد ، معرفة العلم دينٌ يُدان به ، به يكسب الانسان الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه .

ياكميل ، هلك خُزّان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون مابقي الدهر : أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة فأنّ هاهنا لَعِلْماً جماً (واشار بيده الى صدره) لو أصبتُ له حملَه ! بَلَى أصبت لَقِناً غير مأمون عليه ، مستعملاً آلة الدين للدنيا ، ومستظهرا بنعم الله على عباده ، وبحججه على أو ليائه ، أو منقاداً لحملة الحق ، لا بصيرة له في أحنائه ، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شُبهة . ألا لاذا ولا ذاك ! أو فهوما باللّذة سلس القياد للشهوة ، أو مغرماً بالجمع والادّخار ليسا من رعاة الدين في شيء ، أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة ! كذلك يموت العلم بموت حامليه .

اللهم بلى لاتخلو الأرض من قائم لله بحجة ، اما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغمورا ، لئلا تبطل حججُ الله وبيّناتُه . وكم ذا وأين أولئك ؟ اولئك ـ والله ـ الأقلون عدداً ، والاعظمون

عند الله قدرا • يحفظ الله بهم حججه وبيّناته ، حتى يودِ عوها نظراءهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم • هجم بهم العلم على حقيحة البصيرة ، وباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استعوره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحهم معلّقة بالمحل الأعلى • اولئـك خلفـاء الله في أرضه ، والدّعاة الى دينه • آه آه شـوقاً الى رؤيتهـم ! انصرف ياكميل اذا شئت » •

ـ ٢ ـ

يقول ابن سينا عن مراحل تكوينه وانهماكه في الدراسة :

« • • • انتقلنا الى بخاري ، واحضرتُ معلم القرآن ومعلم الأدب ، واكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يُقضى مني العَجب • وكان أبي ممن أجابَ داعي المصريين ويعد من الاسما عيليه • وقد سمع منهم ذكـر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخي • وكانوا ربمّا تذاكـروا بينهم وأنـا أسـمعهم وأدرك مايقولونه ولا تقبلـه نفسي ، وابتـدأ وايدعونني أيضاً اليه ، ويُجرون على السنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ يوجهني الى رجل كان يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه ، ثم جاء الى بخاري أبو عبدالله النائلي وكان يُدعى المتفلـف ، وأنزله أبي دارنا رجـاءَ تعلّمي منه • وقبل قدومه كنت اشتغل بالفقه والتردد فيه الى اسـماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين • وقد ألِفتُ طُرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جـرت عادة القوم بـه •

ثم ابتدأت كتاب ايساغوجي على الناتلي • ولما ذكر لي حدّ الجنس أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ماهو ، فأخذت في تحقيق هذا الحدّ بما لم يُسمع بمثله ، وتعجب مني كلّ العجب وحذّر والدي من شغلي بغير المعلم •

وكان اي مسألة قالها لي أتصورها خيراً منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه • وامّا دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة • ثم اخذت اقر الكتب على نفسي واطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق •

وكذلك كتاب اقليدس فقرأت من أوّله خمسة اشكال أو ستة عليه ، ثم تولّيت بنفسي حلّ بقية الكتاب بأسره • ثم انتقلت الى المجسطي ، ولما فرغتُ من مقدّماته وانتهيت الى الأشكال الهندسية ، قال لي الناتلي : تولَ قراءتها وحلّها بنفسك ، ثم أعرضها عليّ لأبيّنَ لك صوابه من خطئه ، وماكان الرجل يقوم بالكتاب • وأخذتُ أحلّ ذلك الكتاب فكم من شكل ماعرفه الى وقت ماعرضته عليه وفهمتهُ إيّاه • ثم فارقني الناتلي متوجهاً الى كركانج،واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح، من الطبيعي والالهي ، وصارت أبواب العلم تنفتح عليّ •

ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنّفة فيه ، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة • فلا جرَمَ أني برزت فيه في أقلّ مدةحتى بدأفضلاء الطب يقرأون عليّ علم الطب•وتعهدت المرضى فانفتح علي من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف ، وأنا مع ذلك اختلف الى الفقه وأناظر فيه ، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة • ثم توفّرتُ على العلم

والقراءة سنة ونصف ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة • وفي هذه المدة مانمت ليلة واحدة بطولها ، ولااشتغلت النهار بغيره وجمعت بين يدي ظهوراً ، فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية ، ورتبتها في تلك الظهور • ثم نظرت فيما عساها تنتج ، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة ، وكلما كنت أتحير في مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددت الى الجامع ، وصليت وابتهلت الى مبدع الكل ، حتى فتح لي المنغلق وتيسر المتعسر •

وكنت أرجع بالليل الى داري وأضع السراج بين يدي ، واشتغل بالقراءة والكتابة • فمهما بلغني النوم أو شعرت بضعف ، عدلت الى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلي قوتي ، ثم ارجع الى القراءة • ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى أن كثيراً من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام • وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الامكان الانساني • وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم ازدد فيه الى اليوم ، حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي • ثم عدلت الى الالهي ، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة • فما كنت أفهم مافيه ، والتبس علي غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته اربعين مرة وصار لي محفوظا • وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ، وأيست من نفسي وقلت : هذا كتاب لا سبيل الى فهمه • وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين ، وبيد دلال مجلد ينادي عليه فعرضه علي فرددته رد متبرم ، معتقد أن لافائدة من هذا

العلم • فقال لي اشترِ مني هذا فانّه رخيص ابيعكَه' بثلاثة دراهم ، وصاحبة محتاج الى ثمنة . واشتريته فاذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، فرجعت' الى بيتي وأسرعت' قراءته • فانفتح عليّ في الوقت اغراض ذلك الكتاب بسبب أنّه كان لي محفوظاً على ظهر القلب • وفرحت' بذلك وتصدّقت في ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى • وكان سلطان بخارى في ذلك الوقت نوح بن منصور ، واتفق له مرض أتلج الاطباء فيه ، وكان اسمي اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة • فأجروا ذكري بين يديه وسألوه إحضاري ، فحضرت' وشاركتهم في مداواته وتوسّمت بخدمته فسألته يوما الأذن لي في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب فأذن لي فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض ، في بيت منها كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقة وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد •

فطالعت' فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجبهَ اليه منها• ورأيت من الكتب مالم يقع اسمه الى كثير من الناس قطّ ، وما كنت رأيته من قبل ولارأيته أيضا من بعد • فقرأت' تلك الكتب وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كلّ رجل في علمه • فلّما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري ، فرغت من هذه العلوم كلها • وكنت إذ ذاك للعلم احفظ ، ولكنه اليوم معي أنضج' ، وإلاّ فالعلم واحد" لم يتحدد لي بعده شيء • وكان في جواري رجل يقال له أبو الحسين العروضي • فسألني أن' أصنّف له كتابا جامعا في هذا العلم ، فصنّفت' له المجموع وسمّيته به • وأتيت فيه على سائر العلوم سوى الرّياضي ، ولي إذ ذاك احدى وعشرون سنة من عمري •

قال (التنوخي) في كتاب (الفرج بعد الشدة) : « كنت بالبصرة أطلب العلم وأنا مُقِلٌّ وكان على بابنا بقّال اذا خرجت بكرة يقول لي الى أين ؟ فاقول الى فلان المحدِّث ، واذا عدت المساء يقول لي من أين ؟ فأقول : من عند فلان الاخباريّ واللغوي ٠

فيقول ياهذا : اقبلْ وصيّتي أنت شاب فلا تضيع نفسك ، واطلب معاشا يعود عليك نفعه ، وأعطني جميع ماعندك من الكتب أطرحها في هذا الدّن وأصبَّ عليها من الماء للعشرة أربعة وأنبذه وانظر مايكون منه ، والله لوطلبت مني بجميع مالديك من الكتب جوزة ما أعطيتك ٠ فضيقٌ صدري بمداومة الكلام حتى كنت اخرج من بيتي ليلاً ، وأدخله ليلاً وحالي في خلال ذلك يزداد ضيقاً حتى أفضيت الى بيع أخر أساسات داري وبقيت لا أهتدي الى نفقة يوم ، وطال شعري وأخلق ثوبي ، وانسخ بدني وأنا كذلك متحيّر في أمري إذا جاء لي خادمٌ الأمير محمد بن سليمان قال : أجب الأمير ٠ فقلت مايصنع الأمير برجل قد بلغ به الفقر الى ماترى ؟ فلما رأى سوء حالي وقبح منظري رجع فأخبر الأمير بخبري ٠ وعاد اليّ ومعه تخوت ثياب ودُرْجٌ فيه بخور ، وكيس فيه دنانير وقال : قد أمرني الأمير أنْ أُدخلك الحمّام ، وأُلبسك من هذه الثياب وأدَع باقيها عليك ، وأُطعمكَ من هذا الطعام ، واذا بخوان كبير فيه صنوف الأطعمة ، وابخّرك لترجع اليك روحك ٠ ثم اطلعك عليه فسررت بذلك سرورا شديدا ودعوت له ٠ فقمت وعملت ماقاله ومضيتُ معه حتى دخلت على محمد بن سليمان فسلّمت عليه فقربني ورفعني ثم قال ياعبدالملك (الاصمعي

١٢٢/٢١٦هـ) : قد اخترتك لتأديب ولدَيْ أمير المؤمنين فاعمل على الخروج الى بابه وانظر كيف يكون • فشكرته ودعوت له وقلت : سمعاً وطاعة سأخرج شيئاً من كتبي وأتوجه فقال : ودّعني وكن على الطريق فقبلت يده وأخذت جميع ما احتجت اليه من كتبي وجعلت باقيها في بيت وسددْتُ بابه واقعدْتُ على الدار عجوزاً من أهلنا تحفظها ، وباكرني رسول محمد بن سليمان وأخذني الى ذلال قد اتخذ لي وفيه ما أحتاج اليه وجلس معي ينفق عليّ حتى وصلت الى بغداد ودخلت على أمير المؤمنين فسلمت عليه فردّ علي السلام وقال : أنت عبدالملك بن قريب الأصمعي ؟ قلت : نعم • أنا عبد أمير المؤمنين ابن قريب الأصمعي ، قال : أعلم أنّ ولد الرجل مهجة قلبه وثمرة فؤاده ، وهو ذا أسلمُ اليك ابني محمد بأمانة الله فلاتعلمه مايُفسد عليه دينه فلعل أن يكون للمسلمين إماماً • قلت : السمع والطاعة وأخرجه اليّ وتحوّلت معه الى دار قد أُخليت لنا لتأديبه فيها وبها من أصناف الخدم والفرش مايسّر وأجرى عليّ في كلّ شهر عشرة الآف درهم ، وأمر بأنْ يُخرج اليّ في كل يوم مائدة فلزمته ، وكنت مع ذلك أقضي حوائج الناس ، وأنفذ جميع مايجتمع اوّلاً فاوّلاً الى البصرة فأبني داري واشتري ضياعاً وعقاراً فأقمت معه حتى قرأ القرآن وتفقه في الدين وروى الشعر واللغة وروى أيام الناس وأخبارهم ، واستعرضه الرشيد فأعجب به وقال ياعبدالملك : أريد أن يصلّي بالناس في يوم جمعة فاخترْ له خطبة وحفظه إياها فحفّظته عشرا • فخرج وصلّى بالناس وأنا معه ، فأعجب الرشيد به وانثنى الجوائز والصلات عليّ من كل ناحية فجمعت مالاً عظيما • ثم استدعاني الرشيد فقال : ياعبدالملك قد أحسنت الخدمة فتمنّ •

فقلت : ماعسيت أن اتمنى وقد حُزْت آمالي فأمر لي بمال عظيم وكسوة كثيرة وطيب فاخر ، وعبيد وإماء ، وظهر وفرش وآلة فقلت إنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي بالألمام الى البصرة والكتابة الى عامله بها يُخاطب الناس الخاصة والعامة بالسلام عليّ ثلاث أيام ، وإكرامي بعد ذلك ، فكتب لي عنه بما أردت وانحدرتُ الى البصرة وداري قد عمرت وضياعي قد كثرت، ونعمتي قد فشت فما تأخّر عني أحد فلمّا كان في اليوم الثالث تأملت أصاغر مَنْ جاءني فاذا البقال وعليه عمامة وسخة ورداء نظيف وجبّة قصيرة ، وقميص طويل في رجله جرموقان وهو بلا سراويل فقال لي : كيف أنت ياعبدالملك ؟ فاستضحكتُ من حماقته وخطابه لي بما كان يخاطبني الرشيد • فقلت بخير وقد قبلتُ وصيتك وجمعت ماعندي من كتب العلم وطرحتها في الدّن كما أمرت وصببتُ عليه من الماء للعشرة أربعة فخرج ماترى ، ثم أحسنتُ اليه بعد ذلك وجعلته وكيلي •

ـ ٤ ـ

لما وصل أسد بن الفرات الى العراق ودخل بغداد لقي أصحاب أبي حنيفة : أبو يوسف ، والشيباني وغيرهما فسمع منهم ودارسهم ، فلم يُفتح له ماأراد أخذه من الحديث ومسائل الفقه ، وكان يجلس في حلقة محمد بن الحسن الشيباني فلا ينفتح له شيء مما يُتكلم فيه وكان يدرس الليل والنهار ولا ينتفع بشيء من أصول القوم ، وفي الاثناء كان يتعهد رقّاقاً يشتري منه رقوق الكتابة ، فشكى أسد اليه قلة انتفاعه وقال له : « اني غريب طالب علم ، وقد نفدت بضاعتي ولم ينفتح لي شيء من العلم » • فقال له الرقّاق : « اقرأ عليّ وأنا أبين لك اصول القوم » •

قال أسد : «فكنت أقرأ عليه فيبيّن لي ويُفسح لي الطريق، فكنت أتردد عليه حتى انكشفت لي طرائقهم في البحث ، وظهرت مذاهبهم فلما جلست بعد ذلك في حلقة محمد بن الحسن تكلمت مع من يحضر وناظرتهم فقال الشيباني لأصحابه : «انفتح دماغ المغربي ! » ٠

ـ ٥ ـ

جاء في كتاب (الاحياء) للغزالي : قال سهل بن عبدالله التستري : مضيتُ الى الكتّاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشر سنة ، فوقعتْ لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يبعثوني الى أهل البصرة لأسأل عنها فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عنّي شيئا فخرجت الى عبادان الى رجل يُعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبدالله العباداني فسألته عنهما فأجابني فأقمت عنده مدّة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ثم رجعت الى تُستَر » ٠

ـ ٦ ـ

ذكر الرواة ان ابن سحنون كان منهمكا في القراءة والكتابة في أحد الايام الى ان حان موعد العشاء ٠ فجاءته جاريته أم مدام بالعشاء ٠ فقال لها : يام مدام انا مشغول عن العشاء بما أنا فيه ٠ فوقفت صامتة على رأسه ٠ فلما طال انتظارها اخذت تلقمه الى أن أتت على الطعام كله ٠ وانصرفت واستمر هو على حاله الى أنْ اذن المؤذن لصلاة الصبح ٠ فطوى اوراقه وقال : يأم مدام هاتي ماعندك من العشاء ٠ فقالت اطعمتك اياه ياسيدي فقال والله ماشعرت بذلك ٠

ـ ٧ ـ

وابو فتح عثمان بن جني الذي صحب ابا علي الفارسي اربعين سنة ينهل من علمه كان ضعيفاً في علم الصرف • وقد ذكر الرواة انّ أبا علي الفارسي اجتاز الموصل فمرّ بالجامع وأبو الفتح في حلقة يُقرىء النحو وهو شاب • فسأله ابو علي عن مسألة في التصريف فقصر فيها • فقال له ابو علي «زببت (اي صرت زبيبا) وأنت حصرم • فسأل عنه فقيل له هذا ابو علي الفارسي • فلزمه من يومه ينهل من علمه حتى اصبح وما أحد أعلم منه به ولا أقوم بأصوله وفروعه • ولا احسن أحد احسانه في تصنيفه • فلما مات أبو علي تصدّر ابو الفتح في مجلسه ببغداد فأخذ عنه الثمانيني وعبدالسلام البصري وأبو الحسن الشمسي • ولم يكن في شيء من علومه ـ على غزارتها ـ أكمل منه في التصريف • ولم يتكلم احد في التصريف ادقّ كلاما •

ـ ٨ ـ

وسيبويه ـ الذي بدأ بدراسة الحديث والفقه ـ لم يكن مُلماً بالنحو كلّ الالمام • وعندما قرىء الحديث النبوي الشريف «ليس من أصحابي الاّ من لو شئت لأخذت عليه ليس ابا الدرداء» اعترض سيبويه وقال : «حقه ان يكون : ليس ابو الدرداء •» فقيل له لحنت ياسيبويه • ليس هذا حيث ذهبت • وانما «ليس» هنا استثناء • فقال : لاجرم سأطلب علما لاتلحونني فيه • فأخذ النحو والأدب عن الخليل بن احمد ويونس بن حبيب وابي الخطاب الأخفش وعيسى بن عمر •

حدث ابو عبيدة قال : لما مات سيبويه قيل ليونس بن حبيب ان سيبويه قد الف كتابا في الف ورقة من علم الخليل • قال يونس:

« ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل !!! جيئوني بكتابه» •
فلما نظر فيه رأي كل ماحكي • فقال «يجب أن يكون هذا الرجل
قد صدق عن الخليل في جميع ماحكاه كما صدق فيما حكاه عني •»
وذكر صاعد بن احمد الحياني من أهل الأندلس في كتابه قال :
«لااعرف كتاباً ألف في علم من العلوم قديماً وحديثاً فاشتمل
على جميع ذلك العلم وأحاط باجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب :
احدها المجسطي لبطليموس في علم هيئة الافلاك • والثاني كتاب
ارسطاليس في علم المنطق والثالث كتاب سيبويه البصري النحوي•
فانّ كل واحد من هذه لم يشذ عنه من اصول فنه شيء الاّ مالا
خطر له» •

وكان المبرد اذا اراد انسان قراءة كتاب سيبويه يقول له
« أركبت البحر !!! » تعظيماً واستصعاباً وحدث ابن النطاح قال:
« كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه • فقال الخليل : مرحباً
بزائر لايُمل • » وكان ابن النطاح كثير المجالسة للخليل وذكر
انه ماسمع الخليل يقولها لغير سيبويه • وحدث ابو الطيب اللغوي
عن ابي عمر الزاهد قال : « مات الفراء وتحت رأسه كتاب
سيبويه • » وحدث ابو حاتم السجستاني قال « دخلت على الأصمعي
في مرضه الذي مات فيه ••• فقلت له : في نفسي شيء أريد أن
اسألك عنه • قال : سل • فقلت : حدثني بما جرى بينك وبين
سيبويه من المناظرة • فقال : والله لولا اني لا ارجو الحياة من
مرضي هذا ماحدثتك : انه عرض علي شيء من الأبيات التي
وضعها سيبويه ففسرتها على خلاف مافسره • فبلغ ذلك سيبويه •
فبلغني انه قال : لا ناظرته الاّ في المسجد الجامع • فصليت يوما
في الجامع ثم خرجت • فتلقاني في المسجد فقال لي : اجلس ياأبا
سعيد • ماالذي انكرت من بيت كذا وبيت كذا ؟ ولِمَ فسرت على

خلاف ما يجب ؟ فقلت لـه : مافسـرت الا على مايجب • والـذي فسرته أنت ووضعته خطـأ • تسـألني فأجيب • ورفعت صوتي فسمع العامة صياحي ونظروا الى لكنته • فقالوا : لو غلب الاصمعي سيبويه • فسرني ذلك • فقال لي سيبويه : اذا علمت يا اصمعي مانزل بك مني لم التفت الى قـول هؤلاء • ونفض يده في وجهي ومضى • فوالله لقد نزل بي شيء وددت أني لم اتكلم في شـيء من العلم» •

ـ ٩ ـ

والكسائي ـ الذي أصبـح امام الكوفيين في اللغـة والنحو وأحد القرآء السبعة المشهورين ومؤدب أولاد الرشيد وأثيراً عند الخليفة حتى اخرجه منطبقة المؤدبين الىطبقة الجلساء والمؤنسين ـ إنما تعلم النحو على الكبر • وسببه ـ على مايقـول الرواة ـ انه جاء الى قوم من الهباريين وقد أعيا فقال لهم : قد عييت • فقالوا له : « اتجالسنا وأنت تلحن !! فقال كيف لحنت ؟ قالوا : إن كنت اردت من انقطاع الحيلة والتحير في الأمر فقل عييت (مخففاً) • وان كنت اردت من التعب فقل أعييت • فأنف الكسـائي من هذه الكلمة (تلحن) ثم قام من توه فسأل عمن يعلم النحو ؟ فأرشد الى معاذ الهراء فلزمه حتى أنفذ ماعنده • ثم خرج الى البصرة فلقي الخليل وجلس في حلقته • فقال له رجل من الاعراب كيف تركت أسد الكوفة وتميمها ـ وعندها الفصاحة ـ وجئت الى البصرة !! فقال للخليل : « من أين أخذت علمك هذا ؟ » قـال « من بوادي الحجاز ونجد وتهامه • » فخرج ورجع وقد أنفـذ خمسـس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ماحفظ •

وحدث هرون بن علي بن المنجم في آماليه عن أبي ندبة قال سمعت الفراء يقـول : مدحني رجـل من النحويين فقـال لي :

ما اختلافك الى الكسائي وانت مثله في النحو ؟ فأعجبتني نفسي فأتيته فناظرته مناظرة الاكفاء فكأني كنت طائراً يغرف بمنقاره من البحر ٠

اما الخليل بن احمد الفراهيدي الـذي اسـتخرج العروض وضبط اللغة فقد اشتهر بالانصراف التام والمطلق لعمله الفكري٠ وقد عاش على الكفاف لتحقيق هذا الغرض العلمي النبيل ٠ وقد أشار الى ذلك تلميذه النظر بن شميل بقولـه : اكلت الدنيا بعلم الخليل وهو في خص لايشعر به ٠ ومن طريف مايروى عن الخليل ـ في هذه المناسـبة ـ ان سليمان بن علي والي الأحـواز وجّه الى الخليل لتأديب ولده ٠ فأخرج الخليل ـ لرسـول سليمان ـ خبزاً يابساً وقال : مادمت اجده فلا حاجة بي الى سـليمان وقد وصف السيرافي الخليل بانه « الغايـة في تصحيح القياس واسـتخراج مسائل النحو وتعليله ٠ » وذكـر الرواة أنّ ابنه دخل يوماً عليه وهو يُقطّع بيتاً من الشعر فارتاب في أمره وخيّل اليه انه أُصيب بمسّ من الجنون ٠ فخرج يصيح بأعلى صوته : لقد جُنّ ابي ٠ فدخل عليه الناس وهو يقطع البيت واخبروه بمـا قال ابنه ٠ فأنشأ يقول مخاطباً ابنه :

لو كنت تعلم ما اقول عذرتني

أو كنت أعلم ماتقـول عذلتكا

لكن جهلت مقالتـي فعذلتنـي

وعلمت انك جاهـل فعذرتكا

وقضية انهماك الخليـل المنقطـع النظير في عملـه الذهني معروفة أدتْ الى وفاته على مايقـول الرواة فقـد كان منهمكاً في قضية علمية شغلت ذهنه وهو في طريقه الى المسجد ٠ وعند دخوله إياه اصطدم باحدى السواري فأنقلب على ظهره وفارق الحياة ٠

ـ ١١ ـ

هناك أحاديث كثيرة اخرى مماثلة تتعلق بانهماك شخصيات عربية واسلامية فذة في العمل الفكري ابرزها مايتعلق بقطرب ـ محمد بن المستنير ـ الذي لازم استاذه سيبويه ملازمة الظل لذي الظل • وقد سمي قطرب لأنه كان يبكر الى سيبويه للأخذ عنه • فاذا خرج سيبويه سحراً رآه على الباب • فقال يوماً ماأنت الاّ قطرب ليل (دويبة صغيرة) •

وقطرب هذا هو احد ائمة النحو واللغة ومن جماعة النظام في الاعتزال ومؤدب ولد ابي دلف العجلي ـ الذي مرت الاشارة اليه ـ وصاحب المصنفات الكثيرة •

ـ ١٢ ـ

ومن تلك الشخصيات ايضاً اسحق بن ابراهيم الموصلي الذي جمع ـ الى جانب حذقه بصناعته الغناء ـ حسن التصرف في العلوم وجودة الصنعة للشعر • وقد ذكر ياقوت ـ في معجم الادباء ـ انه لو اراد استيعاب موضع الموصلي من العلم ومكانه من الأدب والشعر لطال معجم الادباء وخرج من غرضه في الاختصار •

اما الغناء ـ الذي انفرد به الموصلي ـ فكان اصغر علومه وأدنى مايوصف به وان كان الغالب عليه لأنه كان له في سائر علومه نظراء ولم يكن له نظير في الغناء • ومن طريف مايروى ـ في هذا الصدد ـ انّ المأمون قال مرة لجلسائه : « لولا ما سبق لاسحق على السنة الناس وشهر به في الغناء عندهم لوليته القضاء بحضرتي فانه اولى به وأحق وأعف واصدق تدينا وامانة من هؤلاء القضاة •» وقد ذكر الرواة ان اسحق الموصلي سأل المأمون أن يكون دخوله اليه مع أهل العلم والأدب والرواة ـ لامع المغنين ـ فأجابه المأمون الى ذلك • ثم سأله ـ بعد ذلك بفترة وجيزة ـ أنْ

يكون دخوله مع الفقهاء فأذن له بذلك • وذكر المرز باني عن محمد بن عطية الشاعر قوله « كنت عند يحي بن اكثم في مجلس له يجتمع اليه فيه أهل العلم • وحضر اسحق الموصلي • فجعل يناظر أهل الكلام حتى انتصف النهار • ثم تكلم في الفقه فأحسن واحتج • ثم تكلم في الشعر واللغة ففاق من حضر » •

ولا سحق الموصلي شعر كثير منه ابياته التي انشدها بحضرة الرشيد، عندما دخل عليه يوماً وقال له الرشيد أنشدني من شعرك:

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري

فذلك شـيء ما اليه سـبيل

ارى الناس خلاّن الجواد ولا ارى

بخيـلاً لـه في العـالمين خليـل

ومن خير حالات الفتى لو علمته

اذا نـال خيراً أن يكـون ينيـل

عطائي عطاء المكثريـن تكرمـا

ومالي ـ كما قـد تعلمين ـ قليل

واني رأيت البخل يـزري بأهله

ويحقر يومـاً ان يقـال بخيـل

وكيف اخاف الفقر أواحرم الغنى

ورأي اميـر المؤمنـين جميـل

وله ايضاً من قصيدة اخرى في المعنى نفسه :

يبقى الثناء وتذهب الأموال
ولكل دهر دولة ورجال

ما نال محمدة الرجال وشكرهم
الا الجواد بماله المفضال

لا ترضَ من رجل طلاقة قوله
حتى تصدق ما يقول فعال

فاذا وزنت فعاله بمقاله
فتوازنا فأخاء ذاك جمال

ويحدثنا اسحق بن ابراهيم الموصلي عن نفسه ـ على مايقول ـ ياقوت في معجم الأدباء ـ بقوله «بقيت زماناً من دهري أُغلّس الى هُشيم فاسمع الحديث • ثم اصير الى الكسائي فأقرأ عليه جزءاً من القرآن • وآتي الفرّاء فأقرأ عليه جزءاً • ثم آتي منصوراً زلزل فيطارحني طريقتين أو ثلاثة • • ثم آتي عاتكة بنت شهيد فأخذ منها صوتاً أو صوتين • ثم آتي الأصمعي فأناشده • وآتي ابا عبيدة فأذاكره • ثم أصير الى ابي فأعلمه ماصنعت ومن لقيت وما اخذت واتغدى معه • واذا كان العشاء رحتُ الى الرشيد» •

ـ ١٣ ـ

وأما الجاحظ فأخبار انهماكه المنقطع النظير في اعماله الذهنية اشهر من أن تذكر • فقد كان يكتري دكاكين الوراقين ليقرأ مافيها من الكتب حسب تسلسل موقعها في الدكان بصرف النظر عن موضوعها أو مؤلفها ويقضي فيها ليله • وقد قيل انه لم يقع بين يديه كتاب الا استوفاه قراءة • كما انه واصل القراءة

والتأليف وهو في سن الشيخوخة المتأخرة بعد تجاوز الثمانين من عمره • وقد توفي وهو في احضان الكتب ـ التي احبها ـ عندما انهالت عليه في احد الأيام واودت بحياته • ولعل ولعه في الكتب من حيث اقتناؤها ومن ناحية قراءتها يتجلى في وصفه الكتاب بعبارات انيقة مترفة وباسهاب •

ـ ١٤ ـ

ويدخل ضمن هذا الباب ياقوت الحموي (٥٧٥ ـ ٦٢٦هـ) الذي انصرف الى العلم وانقطع اليه انقطاعاً ملحوظا منذ نعومة اظفارة وتحمّل في سبيله المشاق ووعثاء السفر والفاقة والادقاع• وقد وصف هو حالته التعيسة بابيات منها :

وقفت وقوف الشك ثم استمر لي

يقيني بأن المـوت خير من الفقر

فودعت من أهلي وبالقلب مابه

وسرت من الأوطان في طلب اليسر

وباكية العينين قلت لها اصبري

فَلَلْموتُ خيرٌ من حياة على عسر

ومع ذلك فلم تلن قناته ولم تتن الاحـداث العظام انهماكه بالعلم • والى هذا المعنى يشير في ابيات اخرى منها :

تنكر لي دهري ولم يـدرِ أنني

أعـز وأحـداث الزمـان تهـون

وبات يريني الخطب كيف اعتداؤه

وبت أريـه الصبر كيف يكـون

وقد قاسى في اسفاره العديدة وتنقلاته بين الحواضر الاسلامية آنذاك ماتعذر ـ تصديقه احيانا ... «فلما انتهى الى خراسان .. وخرج عنها .. ومضى الى خوارزم .. وصادفه .. خروج التتر وذلك في سنة ست عشرة وستمائة فأنهزم بنفسه كبعثه يوم الحشر من رمسه . وقاسى في طريقه من المضايقه والتعب ماكان يكل عن شرحه ـ اذا ذكره ـ ووصل الى الموصل وقد تقطعت به الاسباب واعوزه أدنى المآكل وخشن الثياب ثم انتقل الى سنجار وارتحل الى حلب واقام بظاهرها في الخان الى ان مات» . وقد خلف وراءه ثروة فكرية وثقافية مازلنا نعتز بها الى اليوم . منها :

كتاب ارشاد الالباء في معرفة الادباء ، وكتاب معجم الادباء وكتاب معجم البلدان وكتاب معجم الشعراء . وكتاب المشترك وضعا المختلف صقعا . وكتاب المبدأ والمآل في التاريخ والدول . وكتاب المقتضب في النسب . وكتاب اخبار المتقي . وقبل وفاته اوقف كتبه على مسجد الزيدي بدرب دينار بغداد وسلمها الى الشيخ عزالدين المعروف بابن الأثير صاحب الكامل في التاريخ .

كما يدخل في هذا الباب ايضاً علي بن الحسن الأحمر صاحب الكسائي ومؤدب الأمين . وقد ذكر أنّ الرشيد قال للكسائي : « انك كبرت ونحن نحب ان نودعك ولسنا نقطع عنك جاريك . فجعل الكسائي يدافع بذلك ويتلافي ان يأتيهم رجل فيغلب على موضعه الى أن ضيق عليه الأمر وشدد وقيل له ان لم تأتنا انت من اصحابك برجل ارتدنا نحن لهم من يصلح . وكان قد بلغه أنّ سيبويه يريد الشخوص الى بغداد . فقلق لذلك . ثم عزم على ان يدخل الى اولاد الرشيد من لايخشى ناحيته . فقال للاحمر «عزمت ان استخلفك على اولاد الرشيد» فقال نعم .

قال ثعلب كان الأحمر يحفظ الأربعين الف بيت شاهد في النحو سوى ماكان يحفظ من القصائد • وكان مقدما على الفرَّاء في حياة الكسائي وله من التصانيف كتاب التعريف وكتاب تفنن البلغاء • وقيل انه لم يصيره الى أحد قط من التأديب ماصار اليه • ومات قبل الفراء بمدة • ومن الطريف ان نشير هنا الى أنّ الأحمر عندما ادخل الى الدار وفرش له البيت الذي هو فيه بفرش حسن استغرب من ذلك غاية الاستغراب • وكان الخلفاء اذا ادخلوا مؤدباً الى اولادهم فجلس اول يوم امروا ـ بعد قيامه ـ بحمل كل مافي المجلس الى منزله مع مايوصل اليه ويوهب له • فلما اراد الاحمر الانصراف الى منزله دعي له بحمالين فجعل معه ذلك كله • فقال الأحمر : والله مايسع بيتي هذا ومالنا الاّ غرفة ضيقة في بعض الخانات ليس فيها من تحفظه غيري وانما يصلح مثل هذا لمن له دار وأهل • فأمر بشراء دار له وجارية • وحمل على دابة ووهب له غلام •

الجوانب النفسية

الجوانب النفسية في التراث العربي الاسلامي وردت برسائل أحياناً أو فصول خاصة أو ضمن المؤلفات المختلفة أحيانا اخرى ، ولدى بعض المعنيين بشؤون التربية ممن ذكرنا اسماءهم دون بعض آخر بشكل صريح أو ضمني مبعثرة ومتفرقة ايضاً في كتب الأدب والفلسفة والطب • وهي آراء متضاربة • وبعضها بعيد عن روح العصر الذي نعيش فيه • وهذا أمر متوقع ولكنه لاينقص من قيمتها في ضوء قرينتها التاريخية • وقد أعرضنا عن ذكر الآراء البعيدة عن روح العصر لأن ذلك يقع خارج نطاق هذه الدراسة •

وسوف نستعرض الآراء السايكولوجية في رسائل اخوان الصفا (وقد وردت في مواضع مختلفة من رسائلهم) وفي مصنفات بعض المفكرين في هذا الفصل •

اخوان الصفا :

كتب اخوان الصفا (بصدد أهمية علم النفس) في احدى رسائلهم مايلي : « اعلم ـ ايها الأخ البار الرحيم أيدّك الله وايانا بروح منه ـ إنّ احد أغراضنا من هذه الرسالة مابيّنا في أولها ••• وأما الغرض الآخر فهو التنبيه على علم النفس والحث على معرفة جوهرها» • وحول العلاقة بين النفس والجسد (أو بالتعبير العلمي الحديث : بين الدماغ وسائر أعضاء الجسم) كتب اخوان الصفا العبارات الطريفة التالية : « ثم ان هذا الجسد لهذه الروح ـ من جهة اخرى ـ بمنزلة دكان الصانع • وان جميع اعضاء

الجسد للنفس بمنزلة أداة الصانع في دكانه · وان النفس بكل عضو من اعضاء الجسد تظهر ضروبا من الأفعال وفنونا من الاعمال · كما أنّ الصانع يعمل ضروباً من الاعمال وفنوناً من الحركات : كالنجار فانه ينحت في الفأس وينشر بالمنشار ويثقب بالمثقب ويبرد بالمبرد وينقر بالمنقار · وهكذا الحداد فانه ينفخ بالمنفاخ ويطرق بالمطرقة · وعلى هذا القياس سائر الصناع · كل واحد منهم يعمل بأدوات مختلفة اعمالاً مختلفة وحركات متباينة · فهكذا حال النفس: تبصر بالعينين وتسمع بالأذنين وتشم بالمنخرين وتذوق باللسان وتتكلم بالشفتين واللسان وتمس باليدين وتعمل الصنائع بالاصابع وتمشي بالرجلين وتبرك على الركبتين ·· وتنام على الجنبين وتستند بالظهر وتحمل الاثقال على الكتفين ··· وبالجملة مامن عضو في الجسد الاّ وللنفس فيه ضروب من الأفعال وفنون من الأعمال » · لو استبدل اخوان الصفا بكلمة «النفس» ـ التعبير الفلسفي الغامض ـ كلمة «الدماغ» ـ عضو الحياة العقلية من وجهة النظر العلمية الحديثة ـ لاستوفت ملاحظاتهم الصائبة المشار اليها شروطها العلمية بالمقاييس الراهنة ·

ويستطرد اخوان الصفا في وظائف «النفس» ـ أو الدماغ بالتعبير العلمي السائد ـ فيقولون في موضع آخر من رسائلهم : «ثم اعلم ان لكل عضو من اعضاء الجسد قوة من قوى النفس مختصه بها · وهي تدير ذلك العضو وتفعل به افعالاً خلاف ماتفعل قوى اخرى في عضو آخر · وان تلك القوة تسمى نفساً لذلك العضو المختصه به · مثال ذلك : القوة الباصرة فانها تسمى نفس العين · والقوة السامعة تسمى نفس الأذن ، والقوة الذائقة تسمى نفس اللسان · والقوة الشامة تسمى نفس الأنف · وعلى هذا القياس سائر الاعضاء للقوى التي تدبرها وتفعل بها» ·

ولو استبدل اخوان الصفا بمصطلح «نفس العين» و «نفس الأذن» الخ • مصطلح «المركز المخي البصري» و «المركز المخي السمعي» الخ ، لكان رأيهم متفقاً من وجهة نظر علم الدماغ المعاصر •

ويواصل اخوان الصفا بحثهم الطريف هذا في تحليل «النفس» ــ بالتعبير الفلسفي الغامض ــ او بتحليل «الدماغ» بالتعبير العلمي المعاصر ــ فيقولون : « واعلم ياأخي انّ القوة المفكرة مسكنها وسط الدماغ ، وهي من بين هذه القوى كالملك • وسائرها كالجنود والاعوان والخدم والرعية يتصرفون بأمرها ونهيها فيما يفعلون في أعضاء الجسد من الحركات ومايظهرون من الصنائع والاعمال • وان موضعها ــ بين مواضع سائر القوى ــ في أشرف عضو من الجسد وأحسن مكان منه • كما ان دار الملك في أشرف مدينة من بلدان مملكته وفي أجل موضع من المدينة وفي أشرف بقعه • واعلم ياأخي أنّ افعال هذه القوى الخمس أشرف وأكرم من أفعال سائر القوى وقد بيّنا في رسالة الحاس والمحسوس ان القوة المتخيلة ــ التي مسكنها مقدم الدماغ ــ نسبتها الى القوة المفكرة بما تجمع اليها من أخبار المحسوسات كنسبة صاحب الخريطة الى الملك • ونسبة القوة الحافظة ــ التي مسكنها مؤخر الدماغ ــ الى القوة المفكرة كنسبة الخازن الحافظ ودائع الملك • ونسبة القوة الناطقة ــ التي مجراها اللسان ــ الى القوة المفكرة كنسبة الحاجب والترجمان الى الملك • ونسبة القوة الصانعة التي مجراها اليدان والاصابع الى القوة المفكرة كنسبة الوزير المعين في تدبير مملكته والمساعد في سياسته لرعيته» • تلك عبارات في منتهى الدقة والروعة من ناحية المحتوى أو الفحوى بالمقاييس العلمية الراهنة من حيث الاساس • وروعتها هذه تتجلى بأوضح أشكالها اذا تذكرنا

انها كتبت قبل زهاء عشر قرون في الوقت الذي لم يكن فيه «علم الدماغ» قد بدأ باستثناء ملاحظات عابرة وردت هنا وهناك تتعلق بتشريح الدماغ وفسلجته ابداها بعض الاطباء القدامى دون ان ترافقها أو تنتج عنها أية مضامين سايكولوجية · وعندنا لو استبدل اخوان الصفا بمصطلحات «القوة المفكرة» و «القوة المتخيلة» و «القوة الناطقه» مصطلح «الوظائف العقليه أو المخّية العليا» لما اختلف موقفهم عن الموقف العلمي الحديث من حيث الجوهر ·

ويسترسل اخوان الصفا في تحليلهم العلمي لقدرات الانسان العقلية أووظائفه المخية العليا فيقولون في مكان آخر من رسائلهم: «اعلم ـ وفقك الله ـ ان للانسان خمس قوى روحانية هي القوة المتخيلة والمفكرة والحافظة والناطقة و ··· وهي كالمتعاونات في ادراكها رسوم المعلومات · وذلك ان القوة المتخيلة اذا تناولت رسوم المحسوسات كلها وقبلتها في ذاتها كما يقبل الشمع نقش الفص فان من شأنها ان تناولها كلها الى القوة المفكرة من ساعتها، فاذا غابت المحساسات عن مشاهدة الحواس لها بقيت تلك الرسوم مصوّرة صورة روحانية في ذاتها كما يبقى نقش الفصّ في الشمع المختوم مصوّراً بصور روحانية مجردة عن هيولاتها ··· ثم ان من شأن القوة المفكرة أن تنظر الى ذاتها وتراها معانية وتتروى فيها وتميزها وتبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ثم تؤديها الى القوة الحافظة لتحفظها الى وقت التذكر · ثم ان من شأن القوة الناطقة ـ التي مجراها اللسان ـ اذا ارادت الأخبار عنها والانباء عن معانيها والجواب للسائلين عن معلوماتها الفت لها الفاظاً من حروف المعجم وجعلتها كالسمات لتلك المعاني التي في ذاتها وعبّرت عنها للقوة السامعة من الحاضرين · ولما كانت الاصوات

لاتمكث في الهواء الا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل احتالت الحكمة الألهية بأنْ قيّدت معاني تلك الالفاظ بصناعة الكتابة . ثم ان من شأن القوة الصانعة ان تصوغ لها من الخطوط والاشكال بالاقلام وتودعها وجـوه الالواح وبطـون الطوامير ليبقى العلم مفيداً فائدة من الماضين للغابريـن واثـراً من الاولين للآخريـن وخطاباً من الحاضرين للغائبين» .

وبصدد نشوء المدركات العقلية أوالمفاهيم المجردة أوالافكار، وهو موضوع استأثر بالجهـد الأكبر من الدراسـات الميدانيـة والنظرية التي أجراها عالـم النفس السـويسري الراحل بياجيه لفترة تجاوزت نصف قـرن ، كتب اخوان الصفا عبارات دقيقـة لاتختلف من حيث الجوهر عمّا كتبه بياجيه نفســه الذي تفصله عنهم فترة زمنية طويلة تجاوزت الف عام ، وتلك العبارات هي : «واعلم ياأخي بأنّ الحكماء لمّا نظروا الى الموجودات فأول مارأوا الاشخاص مثل زيد وعمرو وخالد . ثم فكّروا فيمن لم يروه من الناس الماضين والغابرين جميعا فعلموا ان كلهم تشملهم الصورة الانسانية وان اختلفوا في صفاتهم من الطول والقصر والسواد والبياض والسمرة .. وما شـاكلها من الصفات التي يمتاز بها بعضهم من بعض فقالوا كلهم انسان وسموا الانســان نوعا لانه جملة الاشخاص المتفقة في الصور المختلفة بالاعراض . ثم رأوا شخصاً آخر مثل حمار زيد واتان عمرو وجحش خالد فعلموا ان الصورة الحمارية تشملها كلها فسمّوها أيضا نوعاً . ثـم رأوا فرس زيد وحصان عمرو ومهر خالد فعلموا ان صورة الفرسـية تشملها كلها ، فســمّوها أيضا نوعا . وعلى هذا القياس سـائر أشخاص الحيوانات من الأنعام والسـباع والطير وحيوان المـاء ودواب البر كل جماعة منها تشملها صورة واحدة سمّوها نوعا .

ثم تفكروا في جمعها فعلموا ان الحياة تشملها كلها فسموها الحيوان ·· ثم نظروا الى اشخاص أُخر كالنبات والشجر وأنواعها فعلموا ان النمو والغذاء يشملها كلها فسمّوها النامي ·· ثم رأوا أشياء أُخر مثل الحجر والماء والنار والهواء والكواكب وعلموا أنها كلها أجسام فسمّوها جنساً ·· ثم أنهم وجدوا أشياء شتى تقع على شيء واحد لم يتغير في ذاته بل من أجل اضافته الى اشياء شتى فسمّوها جنس المضاف · مثال ذلك رجل يسمى أباً وابناً وأخاً وزوجاً وجاراً وصديقاً وشريكاً وما شاكلها ·· ثم إنهم وجدوا اسماء أخر معانيها غير معاني ما تقدم ذكرها مثل فوق وتحت وههنا وما شاكلها من الاسماء فجمعوها وسمّوها جنس الأين · ثم وجدوا اسماء أخر معانيها غير معاني ماذكرنا مثل يوم وشهر وسنة وحين ومدة وما شاكلها من الاسماء فجمعوها كلها وسمّوها جنس المتى» ·

وحول الاعصاب الحسيّة وردت في رسائل اخوان الصفا العبارات الطريفة التالية : « ينتشر من مقدّم الدماغ عصبات لطيفة لينه تتصل الحواس وتتفرق هناك وتنسج في اجزاء جرم الدماغ كنسيج العنكبوت · فاذا باشرت كيفية المحساسات من اجزاء الحواس وتغير مزاج الحواس عندها وغيّرتها عن كيفياتها وصل ذلك التغيير الى تلك الاعصاب ـ التي في مقدم الدماغ والتي منشأها هناك كلها ـ فتتجمع آثار المحساسات كلها عند القوة المتخيلة كما تجتمع رسائل أصحاب الأخبار عند صاحب الخريطة فيوصل تلك الرسائل كلها الى حضرة الملك · ثم ان الملك يقرأها ويفهم معانيها ثم يسلمّها الى خازنه ليحفظها · فيحفظها الى وقت الحاجة اليها · فهكذا حكم القوة المتخيلة اذا اجتمعت عند آثار هذه المحسوسات التي أدّت اليها القوة الحساسة دفعتها الى القوة المفكرة

التي مسكنها وسط الدماغ لتنظر فيها وترى معانيها وتعرف حقائقها ومضارها ومنافعها ثم تؤديها الى القوة الحافظة لتحفظها الى وقت التذكار» ٠

لاشك عندنا في أنّ ملاحظات اخوان الصفا المار ذكرها هي من حيث الاساس ملاحظات صائبة وعميقة بالمقاييس العلمية الراهنه ٠ وهي بنظرنا ادق من الملاحظات التي ابداها ديكارت (١٥٩٦ـ١٦٥٠) الفيلسوف الفرنسي (وعالم الفسلجة والرياضيات ايضاً) الذي جاء من بعدهم بما لايقل عن ستة قرون٠ وعندنا ـ اذا كان لنا عند كما يقول الجاحظ ـ ان ديكارت لو اطلع على ملاحظات اخوان الصفا لتجنب ارتكاب اخطاء شنيعة في عالم الفسلجة بقيت مسلماً بها الى القرن التاسع عشر عندما فندها بشكل مختبري عالم الفسلجة الالماني مولر (١٧٨٠ـ١٨٥٨) وعالم الفسلجة الاسكتلندي مارشان هول (١٧٩٠ـ١٨٥٩) ٠

وحول الخيال من حيث طبيعته ونشوؤه (أو القوة المتخيلة حسب تعبيرهم) كتب اخوان الصفا العبارات الممتعه الآتية (السليمة من حيث الجوهر من الناحية العلمية الحديثة) : «فنريد ان نذكر طرفاً ـ في هذا الفصل ـ من أحوال القوة المتخيلة التي مسكنها الدماغ اذا كانت للقوى الحساسة في تناولها رسوم المحسوسات منها ٠ ونذكر أيضاً بعض الاسباب المعينة على أفعالها والمعوّقة عن ذلك ونذكر تفاوت درجات الناس في هذه القوة ، اذا كان ذلك أحد أسباب اختلافهم في العلوم والمعارف ٠٠ ولكن من أجل ان هذه اكثر القوى الحساسة متخيلات وأعجبها أفعالاً احتجنا ان نذكر علة ذلك فنقول : لهذه القوة خواص عجيبة وأفعال طريفة ٠ فمنها : تناولها رسوم سائر المحسوسات جميعاً وتخيلها بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها ٠ ومنها ايضاً انها

تتخيل أو تتوهم ماحقيقة لـه ومالا حقيقة لـه ٠٠ مثال ذلك أنّ الانسان يمكنه أن يتخيّل بهذه القوة جملاً على رأس نخله أو نخلة نابتة على رأس جمل أو طائراً له اربع قوائم أو فرساً لـه جناحان أو حماراً له رأس انسان وماشـاكل ذلـك مما يعمله المصورون والنقاشون من الصور المنسوبة الى الجن والشياطين وعجائب البحر مما له حقيقة ومما لاحقيقة له ٠٠

ومن خاصة هذه القوة انها تعجز عن تخيّل شيء لم تؤد اليه حاسة من الحواس ٠ وحول الفروق الفردية بين الناس في الخيال كتب اخوان الصفا : « اعلم أنّ الناس ـ في هذه القوة ـ متفاوتو الدرجات تفاوتاً بعيداً جـداً والدليل عليك أنك تجـد كثيراً من الصبيان يكون أسرع تصوراً لما يسمعون وأجود تخيّلاً لما يصف لهم كثير من المشايخ والبالغـين ٠ وذلـك ان كثيراً من العلمـاء والعقلاء والمرتاضين في العلوم والآداب تعجز نفوسهم عن تصور اشياء كثيرة وقد قامت الحجة والبراهين على صحتها » ٠

وبصدد التفكير [القوة المفكـرة] ووحدة عمـل الدماغ أو ترابط الوظائف المخية العليا وآثارها المتبادلة [وهـو مبدأ علمي سليم في الوقت الحاضر] كتب اخوان الصفا العبارات الآتية ذات المحتوى السليم من حيث الاساس : « اعلم ان للقوة المفكرة خواص كثيرة وأفعالاً عجيبة تستغرق فيها أفعال القـوة المتخيلة وافعال سائر القوى الحساسة الداركة ٠ وذلـك أن أفعـال هذه القـوة نوعان : فمنها مايخصها بمجردها ومنها ماتشترك فيه مع قوة اخرى من قوى النفس ٠ فمن ذلك الصنايع فان اكثرها أفعال مشتركة بين هذه القوة المفكرة ـ التي آلتها وسـط الدماغ ـ وبين القوة الصناعية التي آلتها اليدان ٠ ومنها الكلام والاقاويـل واللغات أجمع فانها أفعال مشتركة بين هذه القوة وبين القـوة الناطقـة

التي آلتها اللسان. ومنها تناول رسوم المحسوسات المتخيّلات فانها أفعال مشتركة بين هـذه وبين القـوة المتخيلة التي آلتها مقـدم الدماغ . ومنها تناول رسوم المعلومات المحفوظة فانها المشتركة بين هذه وبين القـوة الحافظـة التي آلتها مؤخـر الدماغ . وأما الأفعال التي تخصها بمجردها فهـي الفكـر والرويـة والتمييز والتصور والاعتبـار والتركيب والتحليـل والجمـع والقيـاس والبرهان .. فاما فضائل هذه القوة وقضاياها على ما بُيِّن ههنا وذلك ان هذه القوة المفكرة من بين سائر القوى الحساسة والمتخيلة ومدركاتها كالقاضي بين الخصماء ودعاويهم » .

وحول تدرج المعرفة عنـد الطفل وسـيره من المحسـوس الى المجرد وهو مبدأ سايكولوجي سليم كتب اخوان الصفا : « واعلم أن فهم القراءة والكتابـة ومعرفتهـا متأخـرة عن فهـم الكـلام والاقاويل . كما أنّ فهـم الكلام والاقاويـل ومعـرفتهـا انما هي متأخرة عن فهم المحسوسات كما هو بيِّن لايخفى على العقلاء ، وذلك أنّ الطفل اذا خرج من الرحم فانـه في الوقت والسـاعة تدرك حواسه محسوساتها فيحس بالقوة اللامسة الخشونة واللين وبالقوة الباصرة النور والضياء وبالقوة الذائقـة طعـم اللبن وبالقـوة الشامة الروائح وبالقوة السامعة الأصوات . ولكنه لايعلم معاني الكلام والاصوات الاّ بعد حين .. ثـم شيئا فشيئاً على التدريج وعلى هذا المثال فهمه ومعرفته بسائر الحواس ومحسوساتها الى ان تتم سن التربية ويُغلق باب الرضاع ويُفتح الكلام والمنطق . ثم بعد ذلـك تجـي أيـام الكتابـة والقـراءة والآداب والصنايـع والرياضيات » .

وبصدد العلاقة بين اللغة والفكر [وهو موضوع استأثر بجهود فئة من ابرز علمـاء النفس المعاصريـن وبخاصـة في الاتحـاد

السوفيتي] كتب اخوان الصفا العبارات الدقيقة التالية : « اعلم ان من شأن القوة الناطقة اذا استعانت بها القوة المفكرة في النيابة عنها في الجواب والخطاب ان تؤلّف الفاظاً من حروف المعجم بنغمات مختلفة السمات التي هي الكلام • ثم تضمن تلك الالفاظ المعاني التي هي مصوَّرة عند القوة المفكرة • فتدفعها عند ذلك الى القوة المعبِّرة لتخرجها الى الهواء بالاصوات المختلفه في اللغات لتحملها الى مسامع الحاضرين بالقرب• فتكون تلك الالفاظ من الحروف المختلفة الاشكال والسمات كالاجساد المركبة من الاعضاء المختلفة وتكون تلك المعاني المضمنة في تلك الالفاظ كالارواح لها لان كل لفظة لامعنى لها فهي بمنزلة جسد لاروح فيه • أو كل معنى في فكر النفس ليس لـه لفظة تُعبِّر عنه فهو بمنزلة روح لاجسد له » •

لو استبدل اخوان الصفا بمصطلح «القوة الناطقة » و «القوة المعبِّرة» مصطلح «جهاز الصوت» لما اختلف رأيهم في قضية العلاقة بين اللغة والفكر عن الرأي العلمي الحديث الذي يقترن باسم عالم النفس السوفيتي فيكوتزكي (١٨٩٦ـ١٩٣٤) : كتب فيكوتزكي في كتابه الذي ترجمة عنوانه «الفكر واللغة» العبارات التالية :[١]

« يعبِّر معنى الكلمة عن رابطة التلاحم العضوي بين الفكر والرموز الذي تشير اليه تلفظا وبالكتابة لان المعنى ظاهرة لغوية وفكرية في آن • فالصوت المنطوق به دون معنى هو صوت أجوف مبهم أو أعجم لايدخل في حيز اللغة • وكذا الحال في الرمز المكتوب • فالمعنى من هذه الزاوية ظاهرة لغوية تعبر عن الصور

---

(١) انظر ••••• (اراء ومواقف تربوية صائبة في التراث العربي الاسلامي) للدكتور نوري جعفر •

الذهنية على هيئة تجريد وتعميم تحملها الاصوات والرموز المكتوبة • فهو في هذه الناحية عملية فكرية دون منازع • معنى هذا انّ الصوت أو الاشارة المكتوبة ظاهرة فكرية اذا نظرنا الى الكلمة من ناحية كونها اداة التعبير تحدثاً وبالكتابة التي تحمل ذلك المعنى الذي لولاه لما اعتبر ذلك الصوت وتلك الاشارة المكتوبة ضمن حدود اللغة • اما الكلمة من حيث هي رسم مكتوب أو صوت منطوق به فهي ظاهرة لغوية اذا نظرنا اليها من حيث كونها الاداة الاجتماعية التي تحمل الفكر وتجسّده وتوضحه وتنقله بين الناس •

فالكلمة اذن كيان واحد متماسك فكري وأداة في الوقت نفسه تعبِّر عن الفكر على هيئة صوت أو رمز مكتوب • وهذا هو جوهر اللغة » •

وفي موضوع اقتصار اللغة ـ بالمعنى الذي مرّت الاشارة اليه ـ على الانسان وحده دون سائر الحيوانات • كتب اخوان الصفا :

« اعلم ياأخي ان الكلام هو صوت بحروف متقطعة دالة على معان مفهومة من مخارج مختلفة ••• ثم اعلم ان الكلام الدال على المعاني مخصوص به عالم الانسان وهو النطق التام بأي حرف كتب • والحيوان لايشرك الانسان فيه من الجهات المنطقية والعبارات اللفظية لكن من جهة الحركة الحيوانية والآلة الجسمانية ، والحاجة فيها الى ذلك ، لأنك تجد كثيراً من الحيوانات تريد بأصواتها دفع المضار وجذب المنافع تارة لانفسها وتارة لاولادها » •

وفي هذا الصدد يمكن أن نجمل موضوع (الحاس والمحسوس) عند اخوان الصفا بما يأتي : « اعلم ان المحسوسات كلها خمسة اجناس ، منها المدركات بطريق اللمس ، وهي عشرة أنواع :

الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والخشونة واللّين والصلابة والرخاوة والخفة والثقل ٠

والجنس الثاني المدركات بطريق الذوق التي هي الطعوم ، وهي تسعة أنواع : الحلاوة ، والمرارة ، والملوحة ، والدسومة ، والحموضة ، والحرافة (الحرارة اللاذعة) ، والعفوصة (المرارة والقبض) ، والعذوبة ٠ والقبوضة ٠

والجنس الثالث هي الروائح المدركة بطريق الشمّ ، وهي نوعان : الطيّب والنتن ٠

والجنس الرابع هي الأصوات المدركة بطريق السمع ، وهي نوعان : حيوانيه وغير حيوانيه ٠ وهذه نوعان : طبيعية وآليه ٠ والحيوانية نوعان : منطقية وغير منطقيـة ٠ والمنطقية نوعـان : دالة وغير دالّة ٠

والجنس الخامس هي المبصرات المدركات بطريـق البصر ، وهي عشرة أنواع : الأنوار ، والظّلم ، والالوان ، والسطوح ، والأجسام انفسها ، وأشكالها ، وأوضاعها ، وأبعادها ، وحركاتها ، وسكونها ٠

وتناول اخوان الصفا تأثير الموسـيقى على النفس والعقـل فقالوا في ذلك : « إنّ الحان الموسيقى أصوات ونغمات ، ولها في النفوس تأثـيرات كتأثيرات صناعـات الصنّاع في الهيُوليـات الموضوعة في صناعتهم ، فمن تلك النغمات والأصوات مايحرّك النفوس نحو الأعمال الشـاقة ، والصنائـع المتعبة ، وينشـّطها ويقوّي عزماتها على الأفعـال الصعبة للأبدان التي تُبذل فيها مُهجَ النفوس وذخائر الأموال ، وهي الالحـان المشـجعة التي تستعمل في الحروب ، وعند القتال في الهيجاء ٠٠٠ ومن الالحان والنغمات أيضاً مايُسـكّن سَوْرة الغضب ويَحلّ الأحقاد ويوقع

الصالح ، ويكسب الألفة والمحبة ، فمن ذلك مايحكى أن في بعض مجالس الشرب اجتمع رجلان متغاضبان ، وكان بينهما ضغن قديم وحقد كامن ، فلما دار الشراب بينهما ثار الحقد والتهبت نيران الغضب ، وهم كل واحد منهما بقتل صاحبه فلما أحس الموسيقار بذلك منهما ، وكان ماهراً في صناعته ، غير نغمات الأوتار ، وضرب اللحن الملين المسكن وأسمعهما ، وداوم حتى سكن سورة الغضب عنهما ، وقاما فتعانقا وتصالحا . ومن الألحان والنغمات ما ينقل النفوس من حال الى حال ويغير أخلاقها من ضد الى ضد ، ومن ذلك مايحكى أن جماعة كانت ، من أهل هذه الصناعة ، مجتمعة في دعوة رجل رئيس كبير ، فرتب مراتبهم في مجلسه ، بحسب حذقهم في صناعتهم ، اذ دخل عليهم انسان رث الحال ، عليه ثياب رثة ، فرفعه صاحب المجلس عليهم كلهم ، وتبين إنكار ذلك في وجوههم ، فأراد أن يبين فضله ، ويسكن عنهم غضبهم ، فسأله أن يسمعهم شيئاً من صناعته ، فأخرج الرجل خشبات كانت معه فركبها ، ومد عليها أوتاره وحركها تحريكا ، فأضحك كل من كان في المجلس من اللذه والفرح والسرور الذي حل داخل نفوسهم ، ثم قلبها وحركها تحريكاً آخر أبكاهم كلهم من رقة النغمة وحزن القلوب، ثم قلبها وحركها تحريكا نومهم كلهم ، وقام وخرج ، فلم يعرف له خبر » .

التوحيدي ومسكويه :

جاء في كتاب (الهوامل والشوامل) للتوحيدي ومسكويه اشارات كثيرة للجانب النفسي أو الجانب النفسي والتربوي معاً .

فقد ورد مايأتي : « قد تبين في المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين احداهما معطية ، والأخرى آخذة . فهي بالقوة الآخذة

تستثيب المعارف ، وتشتاق الى تعرّف الأخبار ، وبها يوجدُ الصبيان اوّلَ نشوئهم محبين لسماع الخرافات، واذا تكهلوا أحبّوا معرفة الحقائق • وهذه القوة هي انفعال وشوق الى الكمال الذي يخصّ النفس •

وهي بالقوة المعطية تفيض على غيرها ماعندها من المعارف ، وتفيده العلوم الحاصلة لها، وهذه القوة ليست انفعالاً بل فاعلة•

وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض • فكل انسان يحرص باحدى قوتيه على الفعل ، وهو الاعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام •

وفي مسألة السلوك وأثر التربية في اصلاحها جاء :

«مسألة : لِمَ صار الكريم الماجد النجد يلد اللئيم الساقط الوغد ؟ وهذا يلد ذاك على تباين مابينهما في أغراض النفس واخلاقها مع قُرب مابينهما في اصولها وأعراقها •

الجواب : قال ابو علي مسكويه ـ رحمه الله ـ : « إن اخلاق النفس وإن كانت تابعة لمزاج البدن فانّ التأديب والسياسة تُصلح منها اصلاحاً كثيراً • وربما كان مزاج الابن بعيداً من مزاج الأب وانضاف الى ذلك سوءُ تأديب ورداءة سياسة ، ويكفي احدهما في الفساد فتختلف الشيمتان والمذهبان» •

وورد كذلك في كشف جوهر النفس من خلال «انفعال الحياء» مايأتي : « أمّا الحياء الذي أحببت ان نبدأ به فحقيقته انحصار نفس مخافة فعل قبيح يصدر عنها •

وهو خلقٌ مرضيّ في الاحداث ، فانه يدلّ على أنّ نفسه قد شعرت بالشيء القبيح ، وأشفقت من مواقعته ، وكرهت ظهوره

منه ، فعرض لنفسه هذا العارض • واحساس النفس بالأفعال القبيحه ، ونفورها عنها دليل" على كرم جوهرها ، ومُطمِع" في استصلاحها جداً •

قال صاحب الكتاب في تدبير المنزل : « ليس يوجد في الصبي فراسة أصح ، ولادليل أصدق لمن آثر أن يعرف نجابته وفلاحه وقبوله الأدب من الحياء » •

وذلك لما ذكرناه من علّة الحياء ، وبيناه من أمره •

فأما المشائخ فلا يجب أن يعرض لهم هذا العارض لأنّه لاينبغي لهم أن يحذروا وقوع فعل قبيح منهم ، لما سبق من علمهم ودُربتهم ، ومعرفتهم بمواضع القبيح والحسن ، ولأنّ نفوسهم يجب أن تكون قد تهذبت وأمنتْ وقوع شيء قبيح منهم ، فلذلك لاينبغي أن يعرض لهم الحياء (وهنا يفرق بين الحياء والخجل) •

وقد بين الحكيم (والمقصود به ارسطو) في كتاب «الاخلاق» •

فقد ذكرنا الحياء ماهو وانه انفعال ، وانه يحسن بالاحداث خاصة ، وذكرنا سبب حسنه فيهم » •

وفي التجاوب النفسي بين شخصين علل التوحيدي ذلك في كتابة (الصداقة والصديق) ما يأتي :

« قلت لأبي سليمان السجستاني إني أرى بينك وبين ابن سيّار القاضي ممازجة نفسيّه وصداقة عقلية ومساعدة طبيعية ومؤاتاة خلقية فمن أين هذا وكيف هو فقال بابنيّ اختلطت ثقتي به بثقته بي فاستفدنا طُمأنينة وسكونا لايرّثان على الدهر ولا يحولان بالقهر ومع ذلك فبيننا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ومظاهرة غريبة حتى أنّا نلتقي كثيراً في الارادات والاختيارات

والشهوات والطلبات وربّما تزاورنا فيحدثني باشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدُها شبيهة بأمور حدثتْ لي في ذلك الاوان حتى كأنها قسائم بيني وبينه أو كأني هو فيها أو هو أنا وربّما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها فنراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل » .

وفي احترام شخصية الطفل وتأكيد القيم الاخلاقية في ذاته يقول ابن مسكويه : « يُمدح الطفل بكل مايظهر منه خلق جميل وفعل حسن ويُكرمَ عليه فان خالف في بعض الاوقات فالأولى أن لايوبخ عليه ولايكاشف بانّه أقدمَ عليه بل يُتغافَل عنه تَغافُلَ مَنْ لايخطر بباله أنّه قد تجاسر على مثله ولاهمّ به ، لاسيما إنْ ستره الصبي واجتهد في أن يُخفيَ مافعله عن الناس فانْ عاد فيُوبخْ عليه سرّاً وليُعظّم عنده ما أتاه ويُحذّرْ من معاودته فانّك إنْ عوّدته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة وحرّضته على معاودة ماكان استقبحه وهان عليه سماع الملامة في ركوب قبائح اللذات التي تدعو اليها نفسه»(٢) .

الجاحظ :

قال الجاحظ في مسألة الحاجة عند الطفل وكيفية إثارتها : « متى ثقّل الدرس تثاقلت النفس ، وتقاعست الطبيعة ، ومتى دام الاستثقال احدث الهجران (بسبب الهجران يحدث النوم وهو ظاهرة نفسية) . واذا تطاول الكد رسخ الزهد . وفي ترك النظر عمى البصر ، وفي إهمال الطبيعة كلال حدّ الطبيعة . وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما انه على قدر غريزة العقل تصح الحوائج وتسقم ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرك الجارحة ويتصرف

---

(٢) راجع كتاب (صفحات تربوية من التراث العربي) خليل ابراهيم السامرائي .

اللسان ، ومع قلة الحركة وبُعد العهد بالتصرف يحدث العيّ ويظهر العجز ويبطيء الخاطر ، ومع ذهاب البيان يفسُد البرهان وفي فساد البرهان هلاك الدنيا ... الخ » .

وفي وظيفة الدماغ وطبيعة العقل وصحته يقول : « العقل حفظك الله أطول رقدة من العين أحوج الى الشحذ من الشيب وأفقر الى التعاهد واسرع الى التغيير وادواؤه أقتل وأطباؤه أقل فمن تداركه قبل التفاقم أدرك اكثر حاجته ومَنْ رامه بعد التفاقم لم يدرك شيئاً من حاجته ومن أكبر أسباب العلم كثرة الخواطر ثم معرفة وجوه المطالب في الخواطر . وللمطالب طرق ولدرك الحقائق ابواب فمن أخطأها ونظر كان أسوأ حالاً فمن لم يُخطئها ولم ينظر وعلى قدر صحة العقل يصح الخاطر وعلى قدر التفرغ يكون التنبّه » .

وللجاحظ قول مأثور في فائدة مناغاة الطفل حيث يقول : « المناغاة نافعة للطفل في تحريك النفس ، وتهييج الهمة ، والبعث على الخواطر ، وفي فتق اللهاة ، وتسديد اللسان ، وفي السرور الذي له في النفس أكرم أثر » .

وفي أثر سلوك الأمّ ومعالجتها لطفلها في حالات معنية معالجة غير صحيحة لجهلها أو قساوتها أو رداءة طبعها فأن ذلك يترك آثاراً غير حميده على نفسية الطفل وتفضي به الى فساد الطبع . فقد جاء في كتاب الحيوان (الجزء الأول ص٢٨٦) ما يأتي :

« وفيما يحكى عن امرأة من عقلاء نساء العرب ، وان كانت نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم ، فما ظنك بالمرأة منهم اذا كانت مقدمة فيهم ـ فرووا جميعاً أن أم تأبط شرا قالت : والله ما ولدته يتناً ولا سقيته غيلا ولا أبتّه على مأقة ...

فأما اليتن فخروج رجل المولود قبل رأسه ، وذلك علامة سوء ودليل على الفساد ، وأما سقي الغيل فارتضاع لبن الحبلى ، وذلك فساد شديد ۰ وأما قولها في المأقة ــ وهذا الذي يعنينا هنا ــ فأن الصبي يبكي بكاء شديداً متعبا موجعاً ، فاذا كانت الأم جاهلة حركته في المهد حركة تورثه الدوار ، أو نومته بأن تضرب يدها على جنبه ، ومتى نام الصبي وتلك الفزعة أو اللوعة أو المكروه قائم في جوفه ، ولم يعلل ببعض مايلهيه ويضحكه ويسرّه ، حتى يكون على سرور ، فيسرى فيه ، ويعمل في طباعه ، ولا يكون نومه على فزع أو غيظ ، فان ذلك مما يعمل في الفساد » ۰

ابن خلدون :

لابن خلدون العالم المؤرخ والاجتماعي والاديب معالجات على جانب كبير من الدقة والأهمية ومنها معالجاته التربوية والنفسية، ففي النص التالي يتطرق ابن خلدون الى كيفية حصول القدرات لدى الشخص والى أهمية العوامل البيئية والتربوية في نضجها وصقلها فيقول : «۰۰۰ إن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسنَ استعداداً لحصولها ، فاذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجتْ عن الفطرة ضعُف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة ، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف ، وهذا بيّن يشهد له الوجود ، فقلّ أن تجدَ صاحبَ صناعة يُحكمها ثم يُحكم من بعدها اخرى ويكون فيهما معاً على رتبة واحدة من الأجادة ، حتى أنّ أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ، ومن حَصّل منهم على مَلَكة علم من العلوم وأجادها في الغاية فقلّ أنْ يُجيد مَلَكة علم آخر

على نسبته ، بل يكون مقصّراً فيه إنْ طلبه إلاّ في الأقلِّ النادر من الأحوال ومبنيٌّ سببُهُ على ما ذكرناه من الاستعداد وتلوينه بلون الملكة الحاصلة في النفس » ٠

وابن خلدون يعتبر علم الرياضيات ـ صناعة الحساب على حدِّ قوله ـ رياضة للعقل والنفس واساساً للتفكير العلمي والتصرف الموضوعي ٠ فيقول : «هذه الصناعة (صناعة الحساب) حادثةٌ احتيج اليها للحساب في المعاملات والّفَ الناس فيها كثيراً وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان ، ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لأنها معارف متّضحة وبراهين منتظمة فينشأ عنها في الغالب عقلٌ مضيء دَرِبٌ على الصواب ، وقد يقال من أخذَ نفسه بتعليم الحساب أوّل أمرِه إنّه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحّة المباني ومناقشة النفس ، فيصير ذلك خُلقاً ويتعوّد الصدق ويلازمه مذهباً » ٠

وبرأي ابن خلدون انّ التربية التعسفيه والضغط والأكراه يكون سبباً في انقسام شخصية الطفل فيقول في هذا الصدد : «إنّ إرهاف الحدِّ في التعليم مُضرٌّ بالمتعلم سيما في أصاغر الوُلد لأنّه من سوء الملكة ، ومن كان مُرَبّاهُ بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيقٌ على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها ودعاه الى الكسل وحُمِلَ على الكذب والخُبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعَلّمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخُلقا ، وفسدتْ معاني الانسانية التي له من حيثُ الاجتماع والتمرّن وهي الحميّة والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالاً على غيره في ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضتْ عن غايتها ومدى انسانيتها ، فارتكس وعاد في أسفل السافلين » ٠

وفيما يتعلق بالقدرات العقلية الخاصة وتصور المفاهيم المجردة واختلاف النشأة التربوية يقول ابن خلدون : «وحُسْنُ الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد الانسان ذكاء في عقله واضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس ، إذ قدّمنا أنّ النفس إنما تنشأ بالادراكات ومايَرجع اليها من الملكات فيزدا دون بذلك كَيْساً لما يرجع الى النفس من الآثار العلمية فيظنّه العامي تفاوتاً في الحقيقه الانسانية وليس كذلك · ألا ترى إلى أهل الحَضَر مع أهل البدو كيف تجد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس حتى أنّ البدوي ليظنّه أنه قد فاته في حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك » ·

وفي النزوع الى الجمال والكمال وأثر الفنون الجميلة في تكوين الاتجاهات الوجدانية يقول ابن خلدون : « إنّ الوجود يُشرك بين الموجودات كما تقوله الحكماء فتَوَدّ أن تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحدّ به ، بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم الى الحقيقة التي هي إتحاد المبدأ والكون · ولما كان أنسبُ الأشياء الى الانسان وأقربها الى أن يُدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الانساني فكان ادراكه للجمال والحسن في تخاطيطه واصواته من المدارك التي هي أقرب الى فطرته ، فيلهج كلّ انسان بالحسن من المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة · والحسْنُ في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لامتنافرة وذلك أنّ الأصوات لها كيفيات من الهَمْس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك ، والتناسب فيها هو الذي يُوجب لها الحسن » ·

ابن سـينا :

اشار ابن سينا باحدى رسائله الموسومة (رسالة في احوال النفس) عن وظائف الدماغ وتعليل كيفية وماهيّة التفكير فقال : «إنّ القوة لو كانت تُعقل بالآلة الجسدانية حتى يكون فعلها إنما يستتم باستعمال تلك الآلة الجسدانية ، لكان يجب أن لاتعقل ذاتها وأن لاتعقل الآلة ، وأنْ لاتعقل أنها عقلت ، فانه ليس بينها وبين ذاتها آلة ، وليس بينها وبين آلتها آلـة ، ولابينها وبين أنهـا عقلت آلة ؛ لكنها تعقل ذاتها ، وآلتها التي تدعى آلها ، وتعقل أنها عقلت، فاذن تعقل بذاتها لابآلة » .

الغزالي :

تناول الغزالي في كتابـه (ميزان العمل) الظواهـر العقلية والظواهر الوجدانية ، وقسّم النفس الانسانية الى قوة عالمة وقوة عاملة ، كما تطرق الى فضائل النفس البشرية والقوى التي ينبغي تهذيبها فيقول : « انّ النفس الانسانية من حيث هي انسانية الى قوة عالمة (اي الظواهـر العقلية) وقـوة عاملـة (اي الظواهـر الوجدانية) . وقد تسـمى كل قوة من هذه القوى عقلاً ، لكـون القوة العاملة خادمة للعاملة مؤتمرة لها فيما ترسم ، (وهذا لايتم الاّ اذا بلغ الفرد درجة النضج) فاما العاملـة فهـي قـوة ومعنى للنفس ، وهي مبدأ حركة جسم الانسان الى الأفعال المعينة الجزئية المختصه بالفكر والرؤية ... وينبغي ان تكون سـائر قوى البدن ممنوعة مغلوبة دون هذه القوة العملية بحيث لاتنفصل هذه القوة عنها وتلك القوى كلها تسكن وتتحرك بحسب تأديب هذه القـوة واشارتها فان صارت مقهورة حدثت فيها هيئات القيادية للشهوات تسمى تلك الهيئات اخلاقاً رديئة وان كانت متسلطة حصلت لها هيئة استيلائية تسمى فضيلة وخلقاً حسناً » .

وفي فضائل النفس البشرية يحدثنا الغزالي بقوله : «مجامع القوى التي لابدّ من تهذيبها ثلاث : قوة التفكر وقوة الشهوة وقوة الغضب ومهما هذبت قوة الفكر واصلحت كما ينبغي حصلت بها الحكمة ، وثمرتها ان يتيسر له الفرق بين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الصدق والكذب في المقال وبين الجميل والقبيح في الأفعال .

والقوة الثانية : هي الشهوة وباصلاحها تحصل العفه حتى تنزجر النفس عن الفواحش ، وتنقاد للمؤاساة والأيثار المحمود بقدر الطاقة .

والقوة الثالثة : الحمية الغضبية وبقهرها واصلاحها يحصل الحلم وهو كظم الغيظ وكف النفس عن التشفي وتحصل الشجاعة وهي كف النفس عن الخوف والحرص » .

وللفارابي مقالة في معاني العقل نقتطف منها مايأتي :

« ... اسم العقل يقال على انحاء كثيرة ، واحد ، الشيء الذي به يقول الجمهور في الانسان انه عاقل ، والثاني العقل الذي يردده المتكلمون على السنتهم فيقولون هذا ما يوجبه العقل وينفيه العقل، والثالث الذي يذكره ارسطو طاليس في كتاب البرهان ، والرابع العقل الذي يذكره في المقالة السادسة من كتاب الاخلاق ، والخامس العقل الذي في كتاب النفس والسادس العقل الذي يذكره في كتاب مابعد الطبيعة ....

فان الصور التي هي اليوم في مواد هي في العقل الفعّال صور منتزعة الاّ انها كانت موجودة في مواد فانتزعت بل لم تزل تلك الصور فيه ، وانما احتذى في أمر المادة الاولى وسائر المواد بان

اعطيت الصور التي في العقل الفعّال ، والموجودات التي قصدنا ايجاها قصداً ولا (كذا) فيما لدينا فهي تلك الصور ، غير انها لم يكن ايجادها منها الا" في مواد كونت هذه المواد ، وهذه الصور في العقل غير منقسمه ، وهي في المادة منقسمة ، وليس بمستنكر ان يكون العقل الفعّال وهو غير منقسم أو يكون ذاته اشياء غير منقسمة ، يعطي المادة واشباه ما في جوهره ، ولاتقبله المادة منقسماً" ، وهذا شيء قد بيّنه أرسطو في كتاب النفس » •

تلك هي المآثر الأصيلة من تراثنا التربوي التي حفلت بها مؤلفات اولئك النوابغ من رجال الفكر خلال حقب مختلفة من تاريخ امتنا العربية وعلى امتداد ساحة وطننا العربي من مشرقه الى مغربه • فقد سجّل اولئك العظماء سِفْراً خالداً من التراث في شتى المعارف والعلوم ، كان جزءاً من الحضارة العربية الاسلامية التي شعّت بنورها على العالم كله ، يوم كان الجهل والظلام يخيم على اجزاء كثيرة من العالم •

فامتنا العربية التي اشرقت حضارتها أمس ، فاليوم مطالبة بشكل ملح بأن تنهض لتؤدي دورها الانساني من جديد في تصحيح مسار البشرية وتقدمه ، فمعركتها مع أعدائها هي معركة حضارية، وهم يحاربونها على هذا الاساس ومن هذا المنطلق،وسلاحها الفعّال فيها هو قيمها وتراثها الروحي •

وهكذا نتمكن من توظيف تراثنا لبناء الحاضر والمستقبل المتطور ، باعتبار ان تراثنا العربي الاسلامي هو أقوى أثراً وتأثيراً من أي تراث قديم حيث أمد"نا بالوحدة الروحية والثقافية

وحمى لغتنا وعززّها • وهذا لايعني ان نقف مقدّسين ومنبهرين أمامه شاعرين بالضعف متمسكين تمسكاً حرفياً بما قام به السلف مجترين الماضي بكل سلبياته وايجابياته ، وانما ننظر ببالغ الأهمية والاتصال مع الحضارات المعاصرة في الغرب والشرق دون تبعية أو اغتراب • وبهذه الوسائل العلمية نتمكن من السير خطوات نحو التجديد والتطوير في عملية البناء والتقدم وبالتالي فاننا ـ وبأي جهد اضافي ـ قد نستطيع ان نُسهم في وضع أمتنا على طريق الانبعاث المنشود كي تؤدي رسالتها لنفسها وللعالم •

اهم المصادر

١ ـ اخوان الصفا ـ الرسائل : بيروت ٠ دار صادر ١٩٥٧ ٠

٢ ـ التنوخي ، القاضي ابو علي المحسن بن علي ـ نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة تحقيق عبود الشالجي دار صادر ـ بيروت ١٩٧٢ ٠

٣ ـ التنوخي ، القاضي ابو علي المحسن بن علي ـ الفرج بعد الشدة ـ دار صادر بيروت ـ ١٩٧٨ ٠

٤ ـ التوحيدي ، ابو حيان ـ الهوامل والشوامل ـ تحقيق احمد أمين ٠ الناشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ط١ ٠ ١٩٥١م ٠

٥ ـ التوحيدي ، ابو حيان ٠ الامتاع والمؤانسة ٠ تحقيق احمد أمين ٠ الناشر دار مكتبة الحياة بيروت ط١ بدون تاريخ ٠

٦ ـ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ـ البيان والتبيين ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٦٤م ٠

٧ ـ الجاحظ،ابو عثمان عمرو بن بحر ـ رسالة في الجد والهزل ـ تحقيق عبدالسلام محمد هارون الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ط١ ١٩٦٤م ٠

٨ ـ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ـ رسالة المعلمين من مجموعة الفصول المختارة لعبيدالله بن حسان التي طبعت على هامش كتاب الكامل للمبرد سنة ١٣٢٣هـ ٠

٩ ـ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ـ الحيوان ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ مكتبة مصطفى البابي ـ مصر ٠

١٠ــ ابن جبير ــ رحلة ابن جبير ــ الناشر دار صادر ودار بيروت ١٩٦٤ ·

١١ــ ابن الجزار القيرواني ــ سياسة الصبيان وتدبيرهم ، تحقيق محمد الحبيب هيلة · الناشر : الدار التونسية للنشر مطبعة المنار تونس ١٩٦٨ ·

١٢ــ ابن جماعة ، بدر الدين سعدالله بن جماعة الكناني تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم · الطبعة ١٣٥٣هـ ــ حيدر اباد ·

١٣ــ ابن حديد ــ شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء دار الكتب العربية ، عيس البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٧ القاهرة ·

١٤ــ ابن حزم الاندلسى ــ رسالة مراتب العلوم ، المحقق احسان عباس · الناشر مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد (بدون تاريخ) ·

١٥ــ ابن خلدون ــ المقدمة ــ الناشر دار احياء التراث العربي ــ بيروت الطبعة ٤ بدون تاريخ ·

١٦ــ السبكي ، تاج الدين ، معيد النعم ومبيد النقم ــ الناشر محمد علي النجار وابو زيد شلبي ،مطبعة دار الكتاب العربي ــ القاهرة ·

١٧ــ ابن العربي ، ابو بكر ، رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها (قانون التأويل) · تحقيق احسان عباس الناشر الجامعة الاميركية بيروت ·

١٨ـ ابن العربي ، ابو بكر ، احكام القرآن ، الناشر : عبدالسلام ابن شقرون • مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٩١٣ •

١٩ـ الغزالي ، ابو حامد محمد بن محمد ، احياء علوم الدين ، الناشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ط٢ سنة ١٩٣٩م

٢٠ـ الغزالي ، ابو حامد محمد بن محمد ، رسالة ايها الولد ـ الناشر اللجنة الدولية لترجمة الروائع طبعة بيروت ١٩٥٩م •

٢١ـ الغزالي ، ابو حامد محمد بن محمد ، ميزان العمل ، الناشر : الدكتور سليمان دنيا ، مطبعة المعارف • ط١ سنة ١٩٦٤م •

٢٢ـ الفارابي ، ابو نصر ، الناشر : مطبعة السعادة القاهرة ١٩٠٧م •

٢٣ـ الفارابي ، ابو نصر ، فصول منوعة ، تحقيق فوزي قدري، الناشر : دار المشرق بيروت ط١ ١٩٧١ •

٢٤ـ القابسي ، ابو الحسن علي ، الرسالة المفضلة لاحوال المعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين المحقق : احمد فؤاد الاهواني ضمن كتابه «التربية في الاسلام» الناشر : دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٥ •

٢٥ـ القالي ، ابو علي اسماعيل بن القاسم ، كتاب الآمالي ، المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٤٣ •

٢٦ـ القلقشندي ـ صبح الاعشى • الناشر : المطبعة الأميرية •

٢٧ـ الماوردي ، ابو الحسن علي ، ادب الدنيا والدين ، شـركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي واولاده القاهرة ١٩٥٥ •
١٩٥٥ •

٢٨ـ ياقوت الحموي ـ معجم الادباء ، تحقيق احمد فريد رفاعي، مطبوعات دار المامـون ، الطبعـة الاخيرة دار احياء التراث العربي بيروت ١٤ • يوليو سنة ١٩٣٦ •

٢٩ـ اليزيدي ، ابو عبدالله محمد بن العباس بن محمد بن ابي يحيى بن المبارك ـ كتاب الآمالي • مكتبة المتنبي ١٩٦٩ •

اهم المراجع

١ ـ صدام حسين ـ حول كتابة التاريخ ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ٠

٢ ـ صدام حسين ـ نظرية البعث والواقع القومي للأمة ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام بغداد ٠

٣ ـ ميشيل عفلق ـ البعث والتراث٠دار الحرية للطباعة بغداد٠

٤ ـ ابراهيم النجار والبشير الزيبي ـ الفكر التربوي عند العرب ـ منشورات النادي الثقافي لدار المعلمين تونس ١٩٧٣ ٠

٥ ـ روجيه ڤال ـ تاريخ التربية ـ ترجمة البشير الزريبي ومحمد الغدامسي طبع الشركة التونسية لفنون الرسم ١٩٦٩ ٠

٦ ـ الدكتور نوري جعفر ـ أراء ومواقف تربوية صائبة في التراث العربي الاسلامي ، دار الرشيد بغداد ١٩٨٢ ٠

٧ ـ الدكتور نوري جعفر ـ الاصالة في شعر ابي الطيب المتنبي ـ مطبعة ـ الزهراء بغداد ١٩٧٦ ٠

٨ ـ خليل ابراهيم السامرائي ـ صفحات تربوية من التراث العربي سلسلة المكتبة الثقافية لنقابة المعلمين ـ المركز العام مطبعة اوفسيت رافد ١٩٨٤ ٠

٩ ـ مجموعة من المؤلفين ـ العراق في التاريخ ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٨٣م ٠

الفهرسـت





رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٣٠٤) لسنة ١٩٨٧